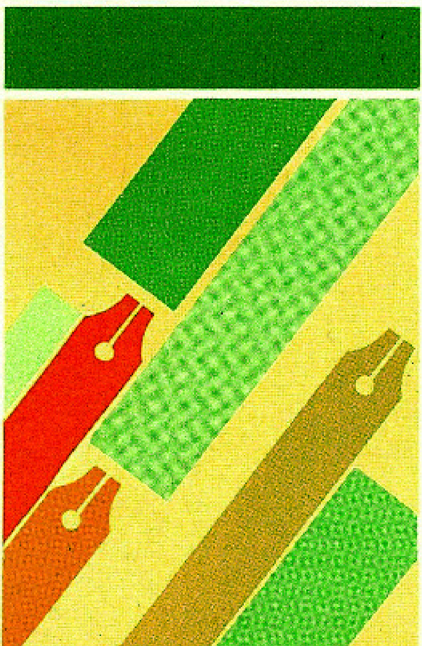
معهد الإنماء العربي
الدراسات التاريخية

الأنصار والرسول

إشكاليات الهجرة والمعارضة في الدولة الإسلامية الأولى

د. ابراهيم بيضون



الأنصار والرسول

معهد الإنماء العربي

الأنصار والرسول ﷺ

إشكاليات الهجرة والمعارضة في الدولة الإسلامية الأولى

د. ابراهيم بيضون

أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة اللبنانية

الطبعة الاولى

لسنة 1989

معهد الإنماء العربي

مقدّمة

كثيرة هي الدراسات التي تناولت الإسلام الأول، سواء تلك التي كان لها طابع شمولي عام، أم تلك التي اكتفت بالتوقف عند محطات بارزة فيه، ربما كان كثيرها، أيضاً، موضع اهتمام سابق، مما جعل الضوء يتّخذ بقعاً صغيرة متناثرة على صفحة هذا التاريخ، ويفترس الظلام بقية المساحة الواسعة، فلا تكاد تصطدم النظرة بغير وميض السيوف ورايات الحرب، أو تتصادى الأذن مع غير سنابك الخيل، وهي تعبر فضاء اللحظة وتخترق مدارات الزمن. ولعلّ بين الثغرات اللافتة في هذه الدراسات، أو معظمها، أنها كانت أكثر تركيزاً على العهود أو الشخصيات أو الأحداث الكبيرة، مثل «الوقائع» والثورات والفرق، وكل ما يندرج في الصراع السياسي على السلطة، سواء تمثّل بـ «أيام» العرب قبل الإسلام أو الحروب الطاحنة بعده، مكتسبةً الأخيرة بعض ملامح تلك «الأيام» الماضية، لاسيما في العهد الأموي، الذي انطوى على انقسامات حادة بين العرب المسلمين.

وكان من الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى هيمنة الطابع السياسي لهذه الدراسات، في تتبعها لأحداث قد تخفي وراءها من الأسباب الاجتماعية والاقتصادية، ما هو أكثر موضوعية من الأسباب السياسية المعلنة. فثمة حركات، أو لنقل ثمة قضايا في التاريخ العربي الإسلامي، ليست خارج اللُّبس أو الإبهام، ولم تتعدَّ النظرة إليها، المفهوم التقليدي السائد، كحركات سياسية أو «فكروية» في أحسن

الأحوال. ولعلّ حركة الخوارج في مقدمة هذه الحركات الملتبسة، التي لا يزال تفسيرها خاضعاً لتلك النظرة الطافية، خلافاً لأسبابها الموضوعية التي أخذت تتنبّه لها مؤخراً بعضُ الدراسات الحديثة، رابطةً بينها وبين مشكلة الأرض في العراق (السواد)، التي كان للخلافة موقف حاسم من توزيعها، بدءاً بالخليفة عمر بن الخطاب وانتهاءً بالخليفة عليّ بن أبي طالب الذي ظهرت في عهده هذه الحركة، وذلك خلافاً لموقف القبائل المشاركة في الفتوح، والتي كانت تعتبر أن لها حقاً في هذه الأرض، لاسيما بعد توزيع جزءٍ منها على بعض كبار الصحابة في عهد الخليفة عثمان. كما تأتي في هذا السياق ثورة «المدينة» التي تدرجها الروايات التاريخية في إطار المعارضة السياسية للعهد السفياني، بينما هي في الواقع، برغم تأثّرها بالمناخ السياسي العام في ذلك الحين، مرتبطة كأسباب موضوعية، بمشكلة «الصوافي»، أو ما يمكن اعتباره حينذاك بأنه حركة لاستعادة الأرض التي افتقدها الأنصار تحت ضغط الظروف الاقتصادية الصعبة في ذلك العهد.

على أن هذه المسألة خاضعة في النهاية للنقاش، دون أن يكون التفسير الاقتصادي دائماً هو التفسير الصحيح للتاريخ الاسلامي، الذي كان له من الخصوصية ما يجعله مختلفاً في بعض تفسيراته عن تواريخ المجتمعات الأخرى، بما فيها بعض المجتمعات العربية في العهود الحديثة والمعاصرة. ولذلك يجب ألّا نبالغ كثيراً في فهم هذا التاريخ من منظور اجتماعي بحت أو إعطاء الأفضلية دائماً للتفسير الاقتصادي، إذ إن التداخل الوثيق ما بين العقيدة والدولة في الإسلام، كان من الفرادة، ما جعل للأولى تأثير عميق في سلوك الثانية، لاسيما في المرحلة المبكّرة منه. وقد تكون هذه الخصوصية، أكثر بروزاً في حركة الفتوح التي تمّت في لحظة ما من التاريخ، كان للعقيدة دور أساسي في انفجارها المناسب، بمثل ما كان لها تأثير مباشر في توحيد القبائل العربية و«تكيينها» السياسي، أي بإعطائها شخصية مستقلة، لم يكن من الممكن اتخاذها بمعزل عن الإسلام.

ومن هذا المنظور، فإن البحث التاريخي يكتسب قيمته بقدر ما يقترب من النص ويتوغّل في مسامه، متفادياً الارتهان المسبق لأية مدرسة قد تدفعه إلى

إسقاط فكرها، وحتى منهجها عليه. فالعلاقة مع النصّ التاريخي يجب أن تكون خارج التيّارات والمؤثّرات الخاصة والعامة، إلاّ ما كان مساعداً منها على فهم طبيعة النص وتحليل عناصره والإحاطة بكافة جوانبه الموضوعية، وكل ما يؤدي إلى استيعابه وإلقاء الضوء عليه بصورة شاملة. على أن ذلك لا يعني الاستسلام المطلق للنصّ، أو التعاطي غير النقدي معه، لأننا نكون قد وقعنا عن قصد أو عن غير قصد في الدوران الأصمّ وأخذتنا جاذبية المكان الضيق، وحادتْ بنا النظرةُ الخاصة عن جوهر الحقيقة التاريخية. فلم تعد مقبولة الدراسات الجافة، المندرجة في إطار ما يُسمى بالمدرسة التقليدية، على الرغم من تجديد بعض أشكالها بتأثير من المناهج الاستشراقية أو الاتجاهات التحديثية المختلفة، إذ لا يزال الطابع السردي غالباً عليها، في وقتٍ باتت الأصول بكاملها منشورة أو على الأقل التفاصيل الواسعة منها، المحيطة بتلك الفترة من التاريخ العربي الإسلامي.

ولعل موضوع «الأنصار» يمثّل قضية هامة جديرة بالبحث، وذلك لارتباط هذه الفئة الطليعية بالتحوّل الكبير الذي جعل من يثرب (المدينة) مقرّاً لدولة الرسول، حيث كان لموقف الأنصار التاريخي تأثير أساسي في إخراج الإسلام من «دار الاضطهاد» إلى «دار الهجرة»، بما يعنيه ذلك من قهرٍ للتحدّيات واختراقٍ لحصار «الأحزاب» القبلية (العربية) واليهودية بزعامة قريش. لقد كانت وقفة بمستوى التاريخ لأولئك «النفر» من الأوس والخزرج الذين ترجع أصولهم إلى «الأزد»، من القبائل اليمنية الكبيرة، عندما اتخذوا خيارهم الصعب في «العقبة»، وفتحوا أبواب مدينتهم للمسلمين الأوائل، ضاربين المثل النموذج في العطاء والتضحية ونكران الذات، حتى استحقوا عن جدارة لقبهم الذي ميّزهم به الرسول بعيد الهجرة وكرّسه في أواخر عهده، بأنهم «أنصار الله وأنصار رسول الله».

وإذا كان هذا القرار ـ الأكثر اقتراناً بقبيلة الخزرج التي كانت لها الريادة في الخيار الكبير، كما كان لها الحضور البارز في المعاهدة الأولى (العقبة)، فضلاً عن الأكثرية في «مجلس» النقباء الاثني عشر ـ نابعاً من معطيات ذاتية وموضوعية معاً، فإن دور الأنصار في الدولة الاسلامية، كان على جانب من الأهمية كبير،

دون أن يقلّل منه، ما انطوت عليه يثرب في ذلك الوقت من صراعات دموية مستمرة، سواء بين القبيلتين العربيتين، أو بينها وبين القبائل اليهودية التي كان لها نفوذها الاجتماعي والاقتصادي، وحرصت من خلال هذا الموقع على إضعاف العرب، لتبقى لها سيادتها والهيمنة على المدينة. وقد جسّد «رؤساء» الخزرج هذا الوضع المأساوي في قولهم للرسول: «إنّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم»، مما يجعل العامل السياسي بارزاً في بيعة «العقبة»، ومنسحباً ربما على الحافز «القومي» الذي كانت له ملامحه في صراعات المدينة قبل الإسلام، فضلاً عن النتائج المباشرة للهجرة، لاسيما وحدة الأوس والخزرج في إطار «الأنصار»، ووحدة هؤلاء مع المهاجرين في إطار «الجماعة الاسلامية».

بالإضافة إلى ذلك، فإن معاناة المسلمين في مكة (قبل الهجرة) وإخفاقهم في إقناع قريش وحلفائها بالإسلام، قد أوجد أساساً للالتقاء مع الأوس والخزرج الذين أنهكتهم الحروب الداخلية ومؤامرات اليهود، بمثل ما أرهقهم تراجع الانتاج الزراعي نتيجةً لانعدام الاستقرار السياسي في يثرب، مما هيّأ الظروف الملائمة للقاء «العقبة» الذي غيّر مسار الحركة التاريخية في ذلك الحين. على أن الأمر لم يكن خياراً موضوعياً فقط، وإنما كان في صميمه خياراً ذاتياً عبّر الأنصار من خلاله عن التزامهم النقي بالإسلام واحتضانهم المثالي للرسول والمهاجرين، ومن ثم انخراطهم العميق في الجهاد، وما ترتّب على ذلك من مواجهة مصيرية مع التحديات، سواء الداخلية منها، حيث تولوا عملياً ضرب النفوذ اليهودي في المدينة، وتفادوا الوقوع في شرك الإنقسام القبلي الذي حاول أن يُوقعهم فيه عبد الله بن أبيّ بن سلول الخزرجي (حركة النفاق)، أو الخارجية منها عبر المشاركة العضوية في الصراع مع مكة، والقيام بمهمات عسكرية وإدارية بالغة الأهمية طوال عهد الرسول. كما تعرّض الأنصار لأول امتحان على مستوى الذات، التي أخذت تهجس بالسلطة، أو ربما الخوف من سلطة الآخرين (بعد فتح مكة)، ممهداً ذلك للامتحان الأكبر (السقيفة)، حيث أخفق الأنصار في تكريس المساواة مع «المهاجرين» في السياسة، على النحو الذي تكرّست فيه المساواة الاجتماعية (المؤاخاة) خلال السنوات الصعاب في دولة الرسول بالمدينة.

إن عدّة إشكاليات يمكن أن يثيرها في الواقع موضوع كالأنصار، لم تناقش

بصورة موضوعية وشاملة حتى الآن. عدا أن هذا الموضوع بصفته الهيكلية لم يسبق طرحه أيضاً، وإنما اقتصر الاهتمام به من خلال الدراسات المحيطة بتاريخ المدينة، هجرةً ودولةً وغزوات وعلاقات داخلية وخارجية مبكرة.. هذا إذا استثنينا مقالة للمستشرق التشيكي Vezely كانت أكثر تركيزاً على الفترتين الراشدية والأموية. أما هذه الدراسة، فإنها تناولت تاريخ الأنصار في عهد الرسول وتابعت بدقّة وشمولية دورهم في التكوين السياسي لدولة المدينة، تلك الدولة التي حملت في مضمونها مشروع «وحدة العرب» المتناثرين قبائل متنافرة أو تابعة لقوى خارجية في شبه الجزيرة وأطرافها، متجسداً كحلقة أولى في جبهة الأنصار، وحلقة أوسع في الجماعة الإسلامية (الأوس والخزرج وبعض قريش والقبائل العربية في الحجاز).

ومن ناحية المنهج، فإن هذه الدراسة، راعت السياق التاريخي للأحداث، انطلاقاً من المرحلة السابقة على الهجرة التي كان لها تأثير ما في التغيّرات التي شهدتها المدينة، مستهلّة بمدخل عن البنية القبلية للمدينة (يثرب) قبل الإسلام، بينما توقف الباب الأول عند الهجرة ودور الأنصار في نشوء الدولة الاسلامية الأولى، ودورهم في الصراع مع اليهود وكذلك دورهم في السرايا والغزوات، فضلاً عن الخلافة التي حُسم أمرها للمهاجرين في مكانٍ لبني ساعدة (من الخزرج) أو ما عرف بالسقيفة. وتناول الباب الثاني الانقسام القبلي في المدينة، معبّرة عنه حركة النفاق وذلك من خلال نظرة جديدة راعت التناقضات الداخلية التي نشأت في ظلها هذه الحركة. أما الباب الثالث والأخير الذي حمل عنوان «زعامات أنصارية جديدة في أواخر عهد الرسول»، فقد تناول شخصيةً نموذجية، أعني بها قيس بن سعد بن عبادة، الذي كان أبوه مرشّحاً شبه اجماعي للخلافة من جانب الأنصار، ثم رفض البيعة لأبي بكر، مؤثراً الانزواء بعدها في حوران، كما قام هو - أي قيس - بدور كبير في أواخر الدولة الراشدية، وكان سيفه آخر سيف أُغمد في الدفاع عنها، إلى درجة دفعت معاوية بن أبي سفيان إلى إجراء صلح خاص معه.

ولعلّ هذه الدراسة تندرج في إطار المنهج العلمي التحليلي، أو ما يمكن التعبير عنه بالمنهج الاستقصائي للظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية،

لاسيما وأنها تنطوي على إشكاليات يصعب بحثها خارج هذا المنهج النقدي، مثل حركة النفاق التي تتأرجح أخبارها بين النص القرآني والنصّ التاريخي، وتنطوي على شيء من التباين، قد لا يكون في الجانب النظري الحاسم، بقدر ما كان في الممارسة التي اكتسبت مرونتها على أرض الواقع، وما اكتنفه من علاقات اجتماعية معقدة. فقد كانت هذه الحركة، أقرب إلى المعارضة السياسية للدولة، منها إلى المعارضة الدينية للدعوة، مما يفسِّر التعاطي المرن والحذر معها في آن، ومن ثمَّ اتخاذها في المقابل حيِّزاً سياسياً لم يضق به مجتمع كان يعطي للشورى أهمية كبيرة.

وإني لأرجو، ختاماً، أن أكون قد وُفِّقت في وضع هذه الدراسة عن «الأنصار والرسول» في دائرة الضوء المناسبة والمقاربة لما كان يجري في تلك المرحلة التأسيسية الهامة من تاريخ الإسلام الأوّل، مسوّغاً لنفسي نشرها، بأنها تعالج موضوعاً جديداً، وتمسح غبار الزمن عن فئة نخبوية في تاريخنا، لم تنل من العناية ما يناسب دورها الكبير. . . هذه الدراسة، يسعدني تقديمها إلى أستاذي وصديقي العالم المؤرخ والشاعر الفنان الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى.

بيروت في 1988/7/4

الباب الأول

الأنصار والهجرة
مرحلة التكوين

مدخل

البنية القبلية للدولة قبل الإسلام

يرى الاخباريون أن قبيلتي الأوس والخزرج (اللتين عرفتا بالأنصار منذ هجرة الرسول إلى يثرب)، من نتاج التحرّك القبلي الزاحف شمالاً في أعقاب الاضطرابات السياسية والاقتصادية التي عصفت باليمن منذ القرن الرابع الميلادي[1] (الغزو الحبشي الأول)، حيث تندرج القبيلتان في سياق الهجرة الأزدية الكبيرة التي انتشرت ما بين الحجاز والشام والعراق[2]. ويبدو أن القبيلتين تتحدّران من جدٍّ واحد في الأصل، إذ إن «الخزرج» برأي النسّابين هو شقيق لـ «الأوس»[3]، مما يرجّح انضواءهما في هجرة مشتركة إلى يثرب، منعكساً ذلك على الروايات التي تتبّعت أخبارهما كوحدة قبلية، بما في ذلك أخبار الصراع والتقاتل بينهما، على نحوٍ لم نرَ مثيلاً له في تاريخ القبائل العربية. ولكن هذه الهجرة غير واضحة المعالم تماماً، لاسيما المتعلّق منها باستقرار القبيلتين في يثرب التي «كان فيها قرى وأسواق وبها قبائل من اليهود من بني اسرائيل

(1) تشير الرواية إلى أن هجرة الأوس والخزرج تمّت في أعقاب ما سُمّي بسيل العرم الذي أدّى إلى انهيار سدّ مأرب. راجع: الحافظ النجّار، الدرر الثمينة في تاريخ المدينة، ص 325-326.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 655-656. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 4، ص 129. ابراهيم الشريف، الدولة الاسلامية الأولى، ص 59.

(3) أوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس من ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد، الدرر الثمينة، ص 326. ابن الأثير، الكامل، ج 1، ص 655. جواد علي، المفصل، ج 4، ص 136.

وغـيرهم، منهم قريـظة والنضير وبنـو قينقاع وغـيرهم، وقـد بنـوا لهم حصـونـاً يجتمعون بها إذا خافوا، فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن والحصون، إلّا أن الغلبـة والحكم لليهود»[1] حسب مـروية ابن الأثـير. ولعل أبـرز عنـاصر الغموض في هذه المسألة، ما أحاط بطريقة الدخول إلى يثرب، ومدى استجـابة اليهود الذين كانت لهم السيطرة على المدينة، حسب الرواية السابقة، فضلاً عن نوعية العلاقة بين القبيلتين والقبائل اليهودية.

وتكاد الأخبار تُجمع على أسبقية الاستقرار اليهـودي، المقترن من حيث المبـدأ بالسيطرة على يثرب، مما يعني أن الأوس والخزرج، قـد نزلـوا ـ سواء في داخـل المدينة أو بالقرب منهـا ـ والسيادة معقـودة فيها لليهـود، حيث يُعتقد أن العـرب القادمين من بيئة تحترف الزراعة كنمط إنتاجي أساسي، قد أقامـوا بجوار يـثرب حينـاً، معتاشـين من هذه الحـرفة في المزارع اليهوديـة، ذات التربـة الـبركـانيـة الخصبة[2]، قبل أن يصلوا إلى تحقيق صيغـة ما للتعـايش[3] في يـثرب، في وقت شهد النفوذ اليهودي تراجعاً، ربّما عـبّرت عنه هـذه الروايـة بأنـه «كان ممن بقي بالمدينة (يثرب) من اليهود حين نزلت عليهم الأوس والخزرج، بنـو قريـظة وبنو النضير وبنو قينقاع»[4]. ويُستنتج من ذلك، أن القبائل اليهودية كانت آخـذة في التنـاقص، وإن كانت لا تـزال في يدهـا «الأموال والآطـام والنخـل. . والعـدد والقـوة»[5]، مما دفعهـا إلى احتواء العـرب في إطـار معـاهـدة «حسـن جـوار»[6] معهم، قبل أن تقوى شوكتهم ويصبحوا خطراً عليها.

ولعلّ وحدة القبيلتين قد أسهمت في تذليل الصعاب ومواجهة التحديـات في يثرب، لاسيما التحـدّي اليهودي الـذي كان أحـد أبرز الحـوافز لهـذه الوحـدة،

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 1، ص 656.

(2) ابن حـوقل، صـورة الأرض، ص 37. راجع أيضـاً كتابنـا: الحجاز والـدولـة الاسـلاميـة، ص 40.

(3) الدرر الثمينة، ص 326.

(4) المكان نفسه.

(5) المكان نفسه.

(6) المكان نفسه. السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ص 177-178.

حيث الشعور بالخطر ما انفك يدفع بالأوس والخزرج إلى التكتّل، وإلى التماهي مـع اليهود في الحـذر وتعزيـز وسائـل الدفـاع عن النفس. وقد أشـارت إحـدى الـروايات في هـذا السيـاق، إلى أن الأوس والخـزرج بعـد انتشـارهم في يـثرب «ابتنوا من الآطام مائة وسبعة وعشرين أطماً وأقاموا كلمتهم وأمرهم مجتمع»[1]. فقد أصبحت القبيلتان «أعزّ أهل المدينة»، فيما يرويه ابن الأثير، وشاركتا اليهود في النخـل والدور[2]، رابـطاً هذا المؤرخ بـين ازدياد نفـوذ العرب وبـين حـركـة عبيد بن سالم الخزرجي المعروف بـأبي جبيلة، ضد أشراف اليهـود و «قتلهم عن آخرهم»[3]، منتقماً لقومه ممّا أنزلوه بهم من طغيان.

وهكذا فإن تكتّل الأوس والخزرج في جبهة واحدة، قد مهّد لهم الدخول إلى يـثرب، ومن ثمّ التصدي لليهـود والتفـوق عليهم، ممـا دفـع هؤلاء تحت تـأثـير هاجس الخوف، من «أن يغلبـوهم على دورهم وأمـوالهم»[4]، إلى التربّص بهـذه الوحدة والتآمر عليها. ولم يلبث الإنقسام أن حلّ بالقبيلتـين وجرّ إلى صراع طـويل، تمثّـل في تلك الحـروب الـطويلة (الأيـام) التي استمـرّت ملتهبـة حتى ظهــور الإسلام[5]. ولم يعدم هذا الصراع الدموي تأثيراً على اليهود الذين تورّطوا فيـه، انطلاقاً من تكوينهم الاجتماعي القبلي وانعكاسه على التنافس الاقتصادي بينهم، وليس بينهم وبين العرب فقط. ولـذلك فـإن الأوس والخزرج، كـانا لا يـزالان الفريق الأقل نفـوذاً، بسبب احتدام العصبيـة التي صرفتهم عن الاستقرار التـام والاهتمام بصورة أفضل بالزراعة، شأن القبائل اليهوديـة التي ظلّت على مـا يبدو محتفظة بالمزارع الكبيرة، فضلاً عن الأسواق التجارية داخل يثرب، كما صرفتهم عن اتخاذ دور بارز في الحركة التجـارية الخـارجية التي سـاهم بها اليهـود بصورة هامشية، بينما الدور المركزي كان معقوداً لمكة في هذا المجال[6].

---

(1) المصدر نفسه، ص 327.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج 1، ص 658.

(3) المكان نفسه.

(4) الدرر الثمينة، ص 326.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 1، ص 658 وما بعدها.

(6) جواد علي، المفصّل، ج 4، ص 141.

ولعل هذا الصراع الذي أطاح وحدة القبيلتين، وما رافق ذلك من اختلال أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، قُدِّر له أن يتداخل في دائرة الصراع الأوسع الذي بدأت ملامحه تتبلور في ذلك الحين، بعد أن أصبحت الوثنية ورموزها الدينية والتجارية في مواجهة خطر كان منطلقه من مكة، التي لم تعدم بدورها صراعات تداخل فيها العنصران التجاري والاجتماعي، مثل «حروب الفجار» التي ربما كانت موجّهة في جانب منها ضد الهيمنة القرشية على القبائل وخطوط التجارة، فضلاً عن شبح الحرب الذي خيَّم حيناً على مكة في الداخل، لولا ظهور قوة جديدة بين الحلفين المتصارعين: «المطيبون» و«الأحلاف»، تداركت انفجار الوضع، معبِّراً عنها حلف «الفضول» الذي أسهم في كبح الصراع وإعطائه مفهوماً جديداً لم تعرفه مكة والحواضر الحجازية من قبل[1]. ففي ذلك الوقت الذي أنهكت فيه «الأيام» الدامية كلّاً من الأوس والخزرج، كانت مكة تشهد صراعاً مختلفاً، ربما وجدت فيه صورة عن «الفجار»، لما ينطوي عليه من تهديد لتجارتها «المقدَّسة» المرتبطة بالكعبة. ولذلك فإن قريشاً لم تنظر بقلق إلى الإسلام في بادىء الأمر، انطلاقاً من وحدة المصالح بينها وبين غالبية القبائل الحجازية، ولكن هذه «الوحدة» أثبتت عجزها عن الصمود، وثبت معها أن المصالح غير مؤهَّلة للاستمرار بمعزل عن القيم الروحية والاجتماعية التي أفرغ منها المجتمع المكي أو كاد في تلك الفترة.

وإذا كان العرب في يثرب يخوضون صراعاً حاداً فيما بينهم، أو ضد اليهود، فإن أهل مكة قد خاضوا حينذاك صراعاً أكثر عمقاً وجذرية، على الرغم من طابعه غير الدموي بالمقارنة مع الحروب الداخلية في يثرب. ولعلَّ محنة هذه المدينة وما انطوت عليه مكة من تناقضات عميقة، أخذت تنعكس على شخصيتها المركزية (الإيلافية)، قد أسهمتا معاً في رفع الحصار عن الدعوة الإسلامية، وإعطائها فرصة لطرح نفسها مجدداً، والإفادة من ارتباك الوضع الداخلي في مكة وصعوبته في يثرب، مما أعاق إمكانية التحالف بينهما ضد «خطر» هذه الدعوة.

---

(1) راجع حول هذه المسألة بحثنا «الايلاف والسلطة في مكة قبل الاسلام» ـ مجلة «دراسات» ـ السنة الثانية عشرة، العدد 18، سنة 1985 ـ الجامعة اللبنانية.

وكان الرسول قد يئس، حينذاك، من إقناع قريش بالإسلام، وأخذت أنظاره تتحوَّل عن مكة التي رأى فيها مفتاح السيطرة على الحجاز وشبه الجزيرة، كما أصيبت محاولته بالإخفاق مع الطائف التي كانت خاضعة في الواقع لنفوذ تجّار قريش ومرتبطة معهم بمصالح وعهود، مشكّلاً ذلك ذروة الإحباط والمعاناة لدى الرسول والمسلمين. فقد باتت الفرص محدودة والخيارات مرهونة بالتغيّرات، وتعرقلت بالتالي حركية الإسلام في مساره الطبيعي واتخاذه الوجهة الحضرية التي تفترض التحرّك عبر مراكز الاستقرار، الأكثر قدرة على التأثير والجذب. ولم يبقَ، إذن، من الحواضر الحجازية سوى يثرب، وإن كانت أكثر «نجدية» في موقعها الجغرافي، كما يراها ابن خرداذبة[1] والقلقشندي[2]، إلاّ أنّ هذا الموقع انطوى على عدة عناصر ايجابية، منها القرب من طريق القوافل المكية (تجارة الشام)، وما يمكن أن يسهم به توظيف هذا العنصر في إضعاف قريش وإرباك تجارتها وتهديد أمنها الاقتصادي بصورة عامة. . هذا عدا المقومات الذاتية التي تتفوق بها على مكة، وتؤهّلها للصمود في حروب طويلة.

والواقع أن ثمة صراعاً خفياً كان يسيطر على العلاقة بين مكة ويثرب، ربما كانت له سمة اقتصادية في الأصل، نتيجة للهيمنة القرشية على تجارة الحجاز، فضلاً عن خطوط القوافل والأسواق في شبه الجزيرة وعلى التخوم منها، قبل أن يتخذ لأول مرة وجهه العلني في «يوم بعاث»[3] الذي كان على ما يبدو آخر «الأيام» الدامية بين الأوس والخزرج[4]. فقد روى اليعقوبي أن هؤلاء «لمّا ضرستهم الحرب وألقت بركها عليهم وظنوا أنها الفناء واجترأت عليهم بنو النضير وقريظة وغيرهم من اليهود، خرج قوم منهم إلى مكة يطلبون قريشاً لتقوّيهم؛ وعزّوا - أي قريش - فاشترطوا عليهم شروطاً لم يكن لهم فيها مقنع»[5].

---

(1) وصفها بأنها حجازية نجدية، المسالك والممالك، ص 128.

(2) رأى أنها من نجد. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص 25.

(3) من أعمال قريظة، ابن الأثير، ج 1، ص 680.

(4) أورد اليعقوبي يوم فجار الأنصار بعد بعاث (تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 37)، بينما أورده ابن الأثير سابقاً على الأخير (الكامل، ج 1، ص 680).

(5) تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 37.

وإذا كان لهذا الموقف القرشي خلفيته التجارية الراجحة في ضوء العلاقات المصلحية مع التجار اليهود ـ لاسيما وأن أحد أبرز تجار قريش (أبو جهل بن هشام المخزومي) قد تدخّل للحؤول دون الاستجابة لنداء الأوس والخزرج ـ فإن ذلك أسهم خلافاً لإرادة قريش، في تغيير مسار المرحلة التي اتخذت وجهة متعارضة مع المسار المكّي المتزمّت، وأدى إلى نشوء جبهة توحّدت في ظلها الفئات المتضرِّرة من الهيمنة القرشية. وقد شكّل ذلك إرهاصاً للفرز الذي تبلور بعد سنوات قليلة جداً، بين تيّار الإسلام في المدينة من المهاجرين والأنصار وبعض الفئات الملتحقة بالأخيرة، وبين تيّار الوثنية، من قريش وثقيف[1] والقبائل المندرجة في إطار المنظومة «الإيلافية».

وهكذا كان وضع العرب في يثرب. على جانب من التعقيد والخطورة، ذلك الوضع الذي اختصره نفر منهم في قولهم للرسول في العقبة: «إنّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم»[2]. ولعلّ الجانب السياسي هو ما يعنينا في موقف الأوس والخزرج من الإسلام، الذي أنقذهم من تلك المحنة وفتح أمامهم المجال لاستعادة وحدتهم والتخلّص من الخطر اليهودي ورفع «ذلّ» قريش عنهم. أما الجانب الديني فإن له بحثاً آخر، يتصل بعدة مؤشرات تزامنت مع التحوّل التاريخي الذي انعطف بهاتين القبيلتين نحو الاسلام[3]، دون أن يكون منفصلاً عن المؤثرات الداخلية والخارجية، فضلاً عن المناخ الاجتماعي المتميّز في يثرب والحافز «القومي» الذي أوجده الصراع مع اليهود ومحاولة التماهي الديني كما السياسي معهم. وفي ضوء هذه المعطيات، فإن الأوس والخزرج كانوا بحاجة إلى هذا «المنقذ» بعد اختلال أوضاعهم في يثرب، وهو ما انعكس مباشرة على موقف القبيلة الثانية (المهزومة)، التي أبدت حماسة لم تُبدِها الأولى (المنتصرة) نحو الإسلام، متقاطعاً ـ أي هذا الموقف ـ مع طموحها إلى استعادة التوازن السياسي في ظلّ الوضع الجديد.

---

(1) التجأ الأوس والخزرج إلى الطائف بعد أن ردتهم قريش ولكن ثقيفاً أبطأت عنهم. تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 37.

(2) ابن هشام، السيرة، ج 2، ص 55.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 54-55.

وإذا كان التساؤل جائزاً هنا، عن شمولية هذا الدافع أو جزئيته لدى الخزرج، فإن فريقاً منهم على الأقل لم يكن بعيداً عن هذه المشاعر، لاسيما القيادات المتورّطة في الحروب الداخلية، أو بقاياها التي ظلّت لها هواجسها القديمة، بينما القيادات الجديدة من الرعيل الثاني أو المخضرم، ارتقت بهواجسها إلى مستوى التغيّرات، وانخرطت جذرياً تحت لواء الإسلام، مما جعلها بعد الهجرة تمثّل القيادة الفعلية للخزرج. ومن هذا المنظور، يمكن تفسير دوافع عبد الله بن أبيّ الذي يعتبر من الرعيل الأوّل، وإن كان ـ خلافاً للأكثرية من الشيوخ ـ غير متورط تماماً في تلك الحرب، وغير مأخوذ ـ شأن القيادات الجديدة ـ بالتطورات التي شهدتها مدينته في ظلّ الإسلام، وأدّت بنفوذه إلى التراجع وبموقعه إلى الاهتزاز. ولقد دأب حينذاك على إثارة العصبيات لدى الأوس والخزرج الذين توحدوا في جبهة «الأنصار»، لا سيّما العصبية الاقليمية، من غير أن يسوقه ذلك إلى التمرد العلني، مما جعل حركته تتّسم بطابع سياسي أكثر مما هو ديني. ولكن محاولة ابن أبيّ في تكتيل «الأنصار» تحت قيادته باءت بالفشل، وأثبت هؤلاء تمسّكهم بالجبهة الواسعة التي ضمتهم والمهاجرين في إطار مفهوم علائقي جديد، تناول مختلف جوانب المجتمع في الدولة الإسلامية الناشئة.

وهكذا تكرّس إخفاق الأوس والخزرج في الخروج من نفق «الأيام» الدامية وحسم الصراع السياسي مع اليهود، الذين ما انفكوا يتصدّون لوحدة القبيلتين ويدفعون بهما إلى التقاتل، حرصاً على نفوذهم وامتيازاتهم في يثرب. وفي المقابل أدركت القبيلتان صعوبة الالتئام في جبهة واحدة، في ظلّ تلك الظروف التي أنهكت قواهما ودمّرت أوضاعهما الاقتصادية خلال نحو قرن من الحروب الطاحنة[1]. ولم يكن مشروع «ترئيس» عبد الله بن أبيّ الخزرجي، انطلاقاً من موقفه الحيادي في يوم «بعاث»، مشروعاً واقعياً، ومن ثمّ جديراً بتحقيق السلام القبلي في يثرب، لاسيما وأن النصر كان معقوداً للأوس، الذين غالباً ما كانت الهزيمة إلى جانبهم في الماضي[2]. مما يجعل من الصعب التسليم بالرئاسة للخزرج

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 1، ص 671.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 658 وما بعدها.

في ذلك الوقت. فقد كان الطرفان، إذن، بحاجة إلى قوة ثالثة، تفوق معطياتها ما كان لدى القبائل اليهودية التي تورّطت في حروبها أيضاً وباتت عاجزة عن الإمساك بزمام الأمور في يثرب. وما لبثت هذه القوة، ممثّلة بالإسلام، أن ظهرت في الوقت المناسب، إذ كانت المدينة مضطربة بشكل عام، والسلطة فيها غير محسومة لأي طرف، والحروب غير منذرة بالتوقف. ولم يتردّد الأوس والخزرج في تلقّف تلك الفرصة التاريخية التي كانوا مهيئين لها فكرياً واجتماعياً وربما قومياً، وكذلك لم يشأ اليهود، برغم دوافعهم الغامضة التصدّي لهذا الخيار في حينه، بعد أن عصفت بهم المحن وتردّت أوضاعهم الاقتصادية، وأفلت من قبضتهم زمام السيطرة التامة على يثرب.

الأنصار والهجرة

ترافقت هجرة المسلمين مع انكفاء العصبيات في المدينة، وظهور ما سُمّي بـ «الجماعة» متجسّدة في مؤشّرين اثنين: الأول، تجلّى في تأسيس المسجد[1] واتخاذه دوراً لم يقتصر على الشأن العبادي، وإنما تجاوزه إلى مختلف الشؤون السياسية والعسكرية والاجتماعية، والثاني عبّرت عنه «الصحيفة» بصورة مباشرة، بما تناولته من إحاطة شاملة لأمور الدولة، نُظماً وعلاقات داخلية وخارجية، مكرّسة في أول بنودها هذه الجماعة[2]، بأن المسلمين «أمة واحدة من دون الناس»[3]. كما أعادت الصحيفة تنظيم المجتمع على أساس طوائفي (كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين)[4]، من دون إسقاط الاعتبار القبلي، الذي تمّ في ظله قرار الدخول في الإسلام من جانب الأوس والخزرج، حيث كان من الصعوبة حسم المسألة القبلية بصورة جذرية في ذلك الوقت. ولكن تداخل البطون عبر هذه الدوائر المستجدة، التي اندمجت بدورها في إطار «الأمة»، شكّل تطوراً هاماً على صعيد التحوّل من القبيلة، بما تنطوي عليه من عصبية وفردية وتطاحن، إلى الدولة بطابعها الاحتوائي العام وصيغها الاجتماعية الجديدة، على نحو أصبح الارتباط بالأولى جزءاً من الولاء للثانية.

ويبدو أن هذا التقسيم كان مقتصراً على العشائر (الطوائف) الداخلة في الإسلام من الأنصار، حيث أشارت «الصحيفة» إلى خمس من الخزرج[5]، واكتفت بذكر عشيرتين فقط من الأوس، بينما الآخرون من هذه القبيلة وردوا تحت اسم «بني الأوس»[6] الذين تأخّر إسلام جزء منهم بعض الوقت. وقد

(1) ابن هشام، ج 2، ص 100.
(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 106.
(3) المكان نفسه.
(4) المكان نفسه.
(5) بنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحارث وبنو جشم وبنو النجار. المكان نفسه.
(6) بنو عمرو بن عوف وبنو النبيت. المكان نفسه.

أسهمت سياسة الرسول الداخلية في احتواء العصبية إلى حدٍّ كبير، سواء القبلية بين الأنصار، حين أقام المسجد «بقباء في بني عمرو بن عوف»[1] (من الأوس) ونزل في دار أبي أيوب خالد بن زيد[2] (من الخزرج) عندما حلَّ في المدينة، أم الاقليمية بين هؤلاء والمهاجرين، من خلال صيغة «المؤاخاة»[3] التي أسهمت ليس فقط في إضعاف النزعة الفردية لمصلحة الجماعة بين المسلمين، ولكن أيضاً في تكريس مبدأ الأخوة على الصعيد الاجتماعي. فالمهاجرون الذين توقفت تجارتهم وضاقت بهم سبل الحياة في مكة، تحت وطأة الاضطهاد القرشي الطويل، سارع الأنصار إلى احتضانهم في المدينة، فقاسموهم الرزق و«واسوهم بالديار والأموال»[4]، مما جعل الطرفين يشكلان جبهة منيعة في وحدتها وتماسكها ومعاناتها المشتركة.

ولكن هذا التلاحم، لم يخلُ من ثغرات صغيرة، كانت تتراءى منها بعض التناقضات بين الطرفين، وتهدِّد أحياناً وحدة الجماعة، معبِّرة عنها بشكل خاص حركة عبد الله بن أبيّ الخزرجي، بدوافعها السياسية والاقليمية الغالبة. فلم يلبث المهاجرون أن اتخذوا موقعهم المميَّز في المدينة، سواءً تعمَّدوا ذلك، أم أن الأنصار بالغوا في تكريمهم، عندما رأوا فيهم عشيرة النبي والسابقين في الإسلام، فضلاً عن صدارة قبيلتهم (قريش) بين القبائل العربية في الحجاز. ولعلَّ الأنصار من هذا المنطلق كانوا أكثر استيعاباً من المهاجرين لحركة ابن أبيّ وتسويغاً لدوافعها «الاقليمية»[5] (موقف عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ على سبيل المثال)، حيث أبدى الرسول مرونة إزاء هذه الحركة، على الرغم من تزامنها مع الفترة الأكثر خطورة من الصراع بين المدينة ومكة، تلك الممتدة ما بين غزوة أُحد وغزوة الخندق. فقد كان عبد الله بن أبيّ من عشيرة صغيرة في

(1) ابن هشام، ج 2، ص 106.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 102. تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 41. تاريخ خليفة بن خياط، ج 1، ص 14.

(3) ابن هشام، ج 2، ص 108-110.

(4) تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 42.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 191.

الخزرج[1] التي مثّلت المادة الفعلية للإسلام في المدينة، واقترن اسمها في الغالب مع الأنصار[2]، على نحوٍ بدت فيه حركة النفاق على هامش الموقف الأنصاري (الخزرجي)، وبدا تأثيرها محدوداً في مسار الدولة الإسلامية. ومن ناحية أخرى كان تعاطف الرسول مع الأنصار، منسجماً مع الدور الذي قاموا به في التمهيد للهجرة، ممّا أسهم في إرساء علاقة اجتماعية متوازنة في المدينة، كانت مبنية في الأساس على كبح نزعة التفوّق، قبلياً (قريش) وإسلامياً (الأسبقية) لدى المهاجرين، وعلى كبح النزعة الاقليمية، ومعها شعور المنقذ للإسلام من محنته الشديدة لدى الأنصار.

بيد أن الأنصار لم يكتفوا بجعل مدينتهم داراً للهجرة، ولكنهم فتحوا عقولهم وقلوبهم للإسلام، وانخرطوا فيه مؤمنين بعقيدته، مقاتلين في أول الصفوف، على نحوٍ يدحض الرأي القائل «إن الأنصار قد قصروا مساعدتهم في أول الأمر على الذود عن الدين ولم يساهموا في الحروب الأولى التي شُنّت في سبيل الدعوة إلّا كارهين، بل لم يشترك واحد منهم قط في الحروب التي وجهت إلى مكة»[3]. فقد كان الأنصار، خلافاً لذلك، «يستعجلون الحرب»[4] مع قريش ـ فيما رواه ابن إسحاق ـ وشاركوا بصورة متكافئة مع المهاجرين منذ سرية حمزة بن عبد المطلب[5]، حيث كان قوامها ثلاثين مقاتلاً، «خمسة عشر من المهاجرين وخمسة عشر من الأنصار»، حسب رواية الواقدي[6].

لقد كان القرار الذي اتخذه الأنصار في «العقبة»، مبنياً على معطيات موضوعية، جعلت منهم أنصاراً بالفعل للإسلام، وما لبث أن اقترن هذا الموقف بالحقيقة بعيد بيعة «العقبة»، حينما تجاوزوا نتائج الأخيرة على صعيد جبهتهم الداخلية التي سرعان ما التزمت بالخيار الجديد، برغم أجواء الحرب المسيطرة عليها، والتناقضات المزمنة بين القبيلتين. وكان من الطبيعي أن يؤدي

(1) وات، محمد في المدينة، ص 265.
(2) Reckendorf، دائرة المعارف الإسلامية، ج 3، ص 54.
(3) المكان نفسه.
(4) ابن هشام، ج 2، ص 68.
(5) المغازي، ج 1، ص 9.

ذلك إلى إعادة النظر في التكوين الاجتماعي للأنصار، في ضوء المتغيرات التي انعكست بصورة خاصة على الخزرج. فقد بدت مسألة النفوذ في هذه القبيلة مطروحة، بين اتجاه جذري يمثّله سعد بن عبادة، وبين اتجاه توفيقي يمثله «شيخ» الخزرج عبد الله بن أبيّ الذي كان أضعف شأناً في قومه، ولكنه استمدّ قوته من تحالفه السياسي مع اليهود. بيد أن هذه المسألة أصبحت، حينذاك، شبه محسومة للأول، منذ وقوعه قبيل الهجرة أسيراً في يد قريش[1]، واتخاذه موقعاً في المدينة بعدها، كواحد بين النقباء الاثني عشر[2]، وغير ذلك مما هيَّاه لدور متحرر من رواسب الماضي، دون أن يستطيع عبد الله بن أبيّ وأصحابه الخروج منها تماماً.

وهكذا حسمت الأمور لمصلحة الاتجاه الأوّل، الذي كان له إسهامه الكبير في انخراط الأنصار، بشكل عام، في العقيدة والدولة، ومشاركتهم في الأعمال العسكرية التي بدأت مباشرة في أعقاب الهجرة. وقد أشارت الروايات إلى أن الأنصار كانوا يبدون تردّداً في المشاركة ببعض السرايا، ويؤثرون البقاء في المدينة[3]، وقيل إن الرسول لم يبعث «أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدراً»[4]، حيث أشار ابن اسحاق - خلافاً لرواية الواقدي السابقة - إلى أن سرية حمزة لم يكن فيها أحد من الأنصار[5]، الذين كانوا يشترطون على الرسول، بأن «يمنعوه في دارهم»[6]. ولكن هذه المسألة، قد لا تعبّر عن موقف خاص، وربما كانت قراراً من الرسول الذي ترك على ما يبدو للأنصار، أمر الاهتمام بالشؤون الحياتية وما تفرضه من انصراف إلى الزراعة وتأمين الغذاء للمدينة، حيث المرحلة كانت لا تزال مقتصرة على السرايا الصغيرة، تلك التي تولى أعباءها المهاجرون، وأكسبتهم مراناً في الحروب التي خاضها العرب المسلمون في جبهات الفتوح فيما بعد. ولكن ابن سعد في مرويته - شأن الواقدي - ذكر أن

(1) ابن هشام، ج 2، ص 68.
(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 65.
(3) الواقدي، كتاب المغازي، ج 1، ص 11.
(4) المكان نفسه.
(5) ابن هشام، ج 2، ص 174.
(6) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 11.

سرية حمزة كان نصفها من الأنصار[1]، بينما التبس الأمر على ابن سيد الناس[2] حين ذكر في مرويته عن ابن سعد، بأن سعد بن معاذ (من الأوس) حمل اللواء في غزوة بواط بقيادة الرسول الذي استخلف الأخير على المدينة[3]، بينما حمل سعد بن أبي وقّاص اللواء، استناداً إلى الرواية نفسها (ابن سعد)[4].

وإذا كان ثمة ما يشوب الموقف الأنصاري، حينذاك، في هذه المسألة، فإن ذلك لم يعد موضع نقاش منذ غزوة بدر (الكبرى)[5] أو القتال[6] أو العظمى[7] كما وردت في عدة روايات، تشير كلها إلى أهمية هذه الغزوة وما رافقها من تحوّل في سياسة المدينة العسكرية، من السرايا إلى الغزوات أو من العمليات الوقائية المحدودة إلى العمليات الهجومية المباشرة. فقد باتت المشاركة الأنصارية ملحّةً، ليس دفاعاً عن المدينة فقط[8] ولكن ترجيحاً للموقف الذي يحتاج إلى دعمهم، وهم حينذاك الأكثرية أو كما وصفهم الرسول في رواية لابن إسحاق، بأنهم «عدد الناس»[9]. ولذلك شكّل الأنصار من هذا المنطلق أكثرية الحملة[10] التي ارتفعت فوقها رايتان: إحداهما مع عليّ (راية رسول الله) والثانية مع سعد بن معاذ (راية الأنصار)[11]. وقد كان الأخير موضع ثقة الرسول ومقرّباً منه،

---

(1) غزوات الرسول وسراياه، ص 6.
(2) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج 2، ص 226.
(3) ورد هشام بن مظعون في سيرة ابن هشام، ج 2، ص 126.
(4) غزوات، ص 8.
(5) ابن هشام، ج 2، ص 182.
(6) الواقدي، المغازي، ج 1، ص 19.
(7) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 4.
(8) روى ابن اسحاق أن النبي كان يخشى «ألا تكون الأنصار ترى عليها نصر إلّا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم». ابن هشام، ج 2، ص 188. الواقدي مغازي، ج 1، ص 49.
(9) ابن هشام، ج 2، ص 182.
(10) كان قوامها ثلاثمائة رجل حسب اليعقوبي، بينهم تسعون رجلاً من المهاجرين ومائتان واثنان وثلاثون من الأنصار. تاريخ، ج 2، ص 45. أو ثلاثمائة وثلاثة عشر بينهم سبعة وسبعون من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار (الواقدي، المغازي، ج 2، ص 152، الطبري، ج 2، ص 272).
(11) ابن هشام، ج 2، ص 187.

وجاءت مشاركته القيادية في هذه الغزوة، تزيل الغموض عن موقف الأوس الذين أبطأوا كمجموعة في الدخول في الإسلام، بالمقارنة مع الخزرج. ولكن لائحة الواقدي التي وردت فيها أسماء المشاركين في غزوة بدر، لم تُشر - خلافاً لرواية الطبري -[1] إلى الأنصاري الآخر (سعد بن عبادة)، الذي كان في مقدمة القيادات الجديدة التي أسفرت عنها الهجرة إلى المدينة، وإن كانت عشيرته (بنو ساعدة بن كعب) حاضرة تحت «لواء الأنصار»[2]. وقد انجلت «بدر»، التي كانت تجربة رائدة للمسلمين في الحرب، عن استشهاد أربعة عشر منهم، ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، وكانوا جميعهم - بما في ذلك جريح أُصيب في المعركة وتوفي بعد العودة إلى المدينة[3] - من الخزرج، الذين بلغ تعدادهم أكثر من نصف الحملة حسب الروايات التاريخية[4].

الأنصار والمسألة اليهودية:

لم تقتصر غزوة بدر على انتصار المسلمين وما ارتبط به من توازن عسكري بين المدينة ومكة، كان على جانب كبير من الأهمية في ذلك الوقت، وإنما انعكست على الوضع الداخلي في الأولى، بطرح المسألة اليهودية واتخاذ موقف حاسم منها. وإذا كان من الأنصار من ارتبط بعهود قديمة مع بعض اليهود، من أمثال عبادة بن الصامت وعبدالله بن أبيّ، حيث تحرّر الأول من التزاماته القديمة[5]، بعد اندراجه في الجماعة، بينما الثاني ظلّت تنازعه ذاته، ومحاولة التوفيق بين وضعين متناقضين، فإن الأنصار أنفسهم خاضوا الصراع ضد اليهود في المدينة، بدءاً بسرية سالم بن عمير (من الخزرج) تلك التي استهدفت أبا عفك اليهودي، لقيامه بالتحريض على الرسول وقول الشعر ضده[6]، وانتهاءً

(1) ذكر الطبري أن راية الأنصار كانت مع سعد بن عبادة. تاريخ، ج 2، ص 272.
(2) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 168.
(3) خليفة بن خياط، ج 1، ص 20-21.
(4) المكان نفسه.
(5) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 157 وما بعدها. كان عبادة بن الصامت حليفاً لبني القينقاع.
(6) المصدر نفسه، ج 1، ص 175. ابن سعد، غزوات، ص 58.

بغزوة قريظة التي حسمت الوضع اليهودي نزولاً على حكم سعد بن معاذ، بأن «تقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم»[1]. وهكذا يصبح للأنصار دور أساسي في الصراع العسكري بين الإسلام وخصومه في الداخل والخارج، دون أن يكون منصرفاً بكليّته أو جانب كبير منه، إلى الزراعة وما يرتبط بها من أمور حياتية ملحّة، وجدت لها بعض الحلول في غنائم المسلمين من بدر والسرايا الأخرى التي كان لبعضها أغراض تجارية[2]، بالإضافة إلى أهدافها الجهادية.

ومن هذا المنظور، يمكن القول إن الأنصار تولوا حسم المسألة اليهودية بأمر من الرسول الذي عهد إليهم هذا الدور تفادياً لإثارة المشاعر الخاصة في المدينة، لاسيما وأن عهوداً قديمة كانت تربط بعض الأنصار ببعض اليهود (استجابة الرسول لطلب عبد الله بن أبيّ بأن يحسن في مواليه (بنو القينقاع) واستبدال حكم القتل بالإجلاء عن المدينة)[3]. وقد حدثت غزوة بني القينقاع بعد شهرين من غزوة بدر، وتولّى إخراجهم عبادة بن الصامت (من الخزرج) حليفهم السابق إلى أذرعات (الشام)، بينما تولّى «قبض أموالهم» محمد بن مسلمة (من الأوس)، بعد محاصرة المسلمين لهم بقيادة الرسول، مستخلفاً على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر (من الأوس أيضاً)، وكانوا جميعهم من الأنصار[4].

وما انفك هؤلاء مرتبطين بالصراع مع اليهود الذي أصبح سافراً بعد غزوة بني القينقاع، وبلغ ذروته في غزوة بني النضير وما خطّطوا له من مؤامرة لقتل الرسول، وإعادة الأوضاع إلى سابقها في المدينة[5]. فقد عمد بنو النضير إلى استثارة العصبية الاقليمية لدى الأنصار، وذلك في محاولتهم مع موفد الرسول (محمد بن مسلمة) الذي حمل إليهم قرار الجلاء عن المدينة، بعد نقض المعاهدة مع المسلمين، إذ قالوا له ـ فيما رواه الواقدي ـ «ما كنّا نرى أن يأتي بهذا رجل

(1) ابن سعد، غزوات، ص 77.
(2) مثل غزوة بدر الموعد وأم قرفة. المصدر نفسه، ص 59، 90.
(3) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 179. ابن سعد، غزوات، ص 29.
(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 179, 180. المصدر نفسه، ص 29-30.
(5) المصدر نفسه، ج 1ص 364.

من الأوس»[1] . . ولكنّها «القلوب تغيرت»[2]، كما أجاب موفد الرسول، والعهود تبدّلت مضامينها والرجال اختلفت عقولها أيضاً، ولم يعد محمد بن مسلمة ملتزماً أي عهد سوى الإسلام. وكذلك عبد الله بن أبيّ، الحليف الأقرب لبني النضير، سرعان ما خذلهم[3] على نحو ما فعله إزاء بني القينقاع، فاضطروا إلى التسليم بالأمر الواقع والجلاء عن المدينة.

وكان الصراع مع اليهود اختباراً في الواقع لإيمان الأنصار الذين تولّوا، عملياً، حسم هذه المسألة بمراحلها المختلفة في المدينة (أبو عفك، كعب الأشراف الذي قتله محمد بن مسلمة مع نفر من الأوس[4]، أبو رافع «تاجر أهل الحجاز» الذي تولى قتله الخزرج[5]، وغزوات بني القينقاع والنضير وقريظة). ولعل هذه المسألة لم تنحصر نتائجها في الجانب السياسي فقط، بما كان لذلك من تأثير مهم في ترسيخ وحدة الجماعة وتعزيز جبهتها أمام الأخطار الخارجية، وإنما كان للجانب الاقتصادي نصيبه البارز أيضاً، إذ أصاب المسلمون أموالاً وخيولاً وأسلحة من اليهود، تمكّنوا بواسطتها من تجاوز الضائقة التي جعلت المهاجرين يتوكأون حيناً على الأنصار في هذا المجال. وقد نفسّر من هذا المنظور، مردود بعض الغزوات على المهاجرين مثل غزوة بني النضير التي فرّقها الرسول «بين المهاجرين دون الأنصار إلاّ رجلين، فإنهما شكيا حاجة»، حسب رواية اليعقوبي[6]، بينما وُزِّعت الغنائم الأخرى على الطرفين، ورُصد جزء منها لأغراض عسكرية، كما حدث بُعيد غزوة بني قريظة، عندما بعث الرسول «سبايا من هؤلاء إلى نجد وابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً، سعد بن زياد الأنصاري»[7] (من الخزرج).

---

(1) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 367.
(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 367.
(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 368.
(4) ابن سعد، غزوات، ص 326.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 146.
(6) تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 49.
(7) ابن هشام، ج 3، ص 149.

الأنصار والصراع مع مكة:

وهكذا أصبح الأنصار شركاء أساسيين في تكوين الدولة الإسلامية، وأخذ دورهم يزداد تأثيراً في مختلف المجالات العسكرية والإدارية والاقتصادية، مما جعل هذه الدولة تتجاوز آفاق الخطر وتقهر التحديات المحيطة بها. ولم يلبث هؤلاء أن اتخذوا موقعهم المتقدِّم في الصراع مع مكة، انطلاقاً من الحملات الأولى (السرايا) التي استهدفت بصورة خاصة، الخطَّ التجاري لرحلة الصيف القرشية، في محاولة للضغط على مكة وإرباك قوافلها في منطقة نفوذ المسلمين أو على تخومها[1]. ومن ناحية أخرى كان الأنصار، عبر قياداتهم الجديدة، قد تولوا في الغالب مهام السلطة نيابة عن الرسول في المدينة، وذلك إبّان خروجه غازياً منها، حيث «غزا بنفسه سبعاً وعشرين»[2]، من أصل سبع وأربعين سرية وغزوة[3] انطلقت من الأخيرة.

ويبدو أن غزوة بدر، التي كانت غالبيتها من الأنصار، كما سبقت الإشارة، قد أثارت حقد قريش على هؤلاء، ملقيةً عليهم مسؤولية الهزيمة التاريخية التي ظلت تتفاعل أجيالاً في نفوس بني أمية[4]، فلم تشأ قريش ـ عبر «شيخها» أبي سفيان ـ تجاهل نكبتها في بدر، وما لبث الأخير الذي «حُرم الدهن حتى يثأر من محمد وأصحابه بمن أصيب من قومه»[5]، أن خرج من مكة بعد أقل من أربعة شهور، مستطلعاً أخبار المدينة، وممهداً لحملته الانتقامية.. وإذ به أمام مزارع

---

(1) راجع قول صفوان بن أمية: «أن محمداً وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا». الواقدي، ج 1، ص 197.

(2) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 1، ص 223.

(3) المكان نفسه.

(4) راجع بيت الشعر المنسوب ليزيد بن معاوية أو لشاعره عبد الله الزبعري بعد موقعة الحرّة ونكبة الأنصار فيها، حيث أصابت قريش ثأرها من بدر وتحديداً من الخزرج كما يرى الشاعر:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

البلاذري، أنساب، مخطوطه 333.

(5) الواقدي، ج 1، ص 181.

من الأنصار بـ «العريض[1] مع أجير له في حرثه، فقتله وقتل أجيره وحرق بيتين بـالعريض وحـرق حرثـاً لهم»[2] وقفل عـائداً إلى مكـة. ولما بلغ ذلـك الرسـول «خرج في مائتين من المهاجرين والأنصار»[3]، مستخلفاً عـلى المدينـة أبا لبـابة بن عبد المنذر (من الأوس)[4]، فسار في أثر أبي سفيان مسافـة ما، مما جعل الأخـير وأصحابه يتخفّفـون من أحمالهم ويلقـون جرابهم المـلأى بالسـويق[5]، فوجـدها المسلمون وعادوا بها إلى المدينة، حيث سميت الغزوة نتيجـة لذلـك بهذا الاسم (السويق).

ولم تكن حملة قـريش ـ التي جنّدتـها في العـام الثـالث للهجـرة بهـدف الثـأر لقتلاها في بدر ـ بعيدة عن هذا الشعور الـذي دفعها إلى حـرق مزارع الأنصـار بـالعريض «حتى تـركوه ليس به خضراء»[6]،حسب رواية ابن سعـد. وقد أدّت هذه الحادثة إلى استنفار عـام، اتخـذ الأنصـار في ظلّه أشد الحيـطة تحسّباً لهجـوم قرشـي، حيث فُرضت حراسة شـديدة عـلى المدينـة، في الوقت الـذي بات فيـه ثلاثة من قادتهم وهم: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبـادة،«عليهم السلاح في المسجد بباب الرسول»[7]. وهكذا سيطرت أجواء الحرب على المـدينة التي انهمكت في تـنـظيم خطتهـا العسكريـة، لاسيما بعـد اختلاف المسلمـين بين اتجاهين متعارضين: أحـدهما رأى البقـاء في المدينـة والدفـاع عنها، انـطلاقاً من استهداف قريش لها، ممهدةً لذلك بحرق مزارع الأنصار، وثانيهما غلبته الحماسة لمواجهة الحملة القرشية ومنعها من بلوغ المدينة ممّا دفـع الرسـول إلى حسم الأمر عن طريق الشورى، مرجّحاً موقف الاتجاه الثـاني، الممثّل ليس بـالأغلبية فقط،

(1) وادٍ بالمدينة على بعد نحو ثلاثة أميال منها. الـواقدي، ج 1، ص 181. ابن سعـد، غزوات، ص 30.
(2) المكان نفسه في المصدرين السـابقين.
(3) ابن سعد، غزوات، ص 30.
(4) ابن سيد الناس، ج 1، ص 275.
(5) قمـح أو شعير يُغـلى ثم يطحن فيتـزوّد به ممزوجاً بمـاء أو سمن أو عسل. الـواقـدي، ج 1، ص 181.
(6) غزوات، ص 37.
(7) الواقدي، ج 1، ص 208. غزوات، ص 37.

ولكن بالقيادات الفاعلة في المدينة من أمثال حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، وذلك خلافاً للرواية التي أوردها ابن سعد، بوصفها أصحاب هذا الاتجاه بأنهم «فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً»[1].

ولعلّ هذه الغزوة تطرح إشكالية هامة في الموقف الأنصاري من الإسلام، منطوياً على تيّار الجذرية التي تألّقت رموزها في «بدر» وجسّدها بشكل خاص كلٌّ من سعد بن عبادة والحباب بن المنذر وبشير بن سعد (الخزرج)، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير ومحمد بن مسلمة وأبو لبابة بن عبد المنذر (الأوس)، وغيرهم ممن تحمّسوا للخروج من المدينة، خشية ظن العدو بأنهم «كرهوا الخروج إليه جبناً عن لقائه»، حسب رواية الواقدي[2]. كما ينطوي هذا الموقف على تيّار الاعتدال، ممن لا تزال عالقة فيه رواسب الماضي، من أمثال عبد الله بن أبيّ، الذي ارتبطت به حركة النفاق في أعقاب هذه الغزوة (أُحد)، إذ رأى الأخير، أن القتال في المدينة، أمنع للمسلمين في مواجهة عدوهم المتفوق عدداً وسلاحاً، ولكن دون أن يعني هذا الموقف بالضرورة، تقاعس هذه الفئة أو استنكافها عن الحرب، حيث توارد ذلك مع رأي الرسول و «رأي الأكابر من المهاجرين والأنصار»[3] حسب رواية للواقدي.

لقد تسلّح ابن أبيّ بالتقليد الحربي للمدينة، مخاطباً الرسول بقوله: «كنّا نقاتل في الجاهلية فيها، ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة.. وما خرجنا إلى عدوٍّ قط إلاّ أصاب منا»[4]. وفي المقابل كان هذا الرأي مسوّغاً لدى الرسول الذي توجه بمثله إلى أصحابه، مؤثراً البقاء في المدينة وتحويلها إلى ساحة حرب، أو ما يسمى اليوم بـ «حرب الشوارع»، وذلك بما نُسب إليه من القول: «امكثوا في المدينة واجعلوا النساء والذراري في الآطام، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم، وارموا من فوق

(1) ابن سعد، غزوات، ص 38.
(2) المغازي، ج 1، ص 210.
(3) غزوات، ص 38.
(4) المغازي، ج 1، ص 210.

الصياصي والآطام»[1]. ولكن الرسول ترك الفصل للشورى، لاسيما وأن المجموعة المتحمسة للقتال خارج المدينة، كانت تضم بينها عناصر تحظى بتقديره وثقته. على أن ذلك، وبعيداً عن النتائج المعروفة التي انتهت إليها غزوة أُحد، قد أحدث شرخاً في جبهة الأنصار التي أضعفها من دون شك، موقف عبد الله بن أبيّ، برغم محاولة تكتيلها تحت قيادته، حيث كان من أبرز هواجس الأخير في تلك المرحلة، تقدّم أولئك الرجال من قومه عليه، ممن رجّح الرسول رأيهم عشية الغزوة.

وكانت أولى ثمار الانشقاق الذي أحدثه ابن أبيّ قد قطفها الأنصار في غزوة أُحد نفسها، إذ سقط منهم سبعون من القتلى في ساحة المعركة[2]، مقابل أربعة من المهاجرين[3]، وأقلّ منهم من مواليهم، مجسّداً ذلك الرأي في الطابع الانتقامي للحملة القرشية إزاء الأنصار. ولكن المحنة على شدّتها لم تؤثّر في إيمان هؤلاء أو تمسّ إخلاصهم للرسول، أو تؤثّر في صلابة موقفهم، حتى في مواجهة ابن أبيّ ومحاولته النفاذ عبر المحنة إلى قلوبهم واستثمار حزنهم على صرعى المعركة. فقد أعرض عنه المسلمون، «وكان الأنصار - فيما يرويه الواقدي - أشد من كان عليه ممن حضر»[4]، معبّراً عن هذا الموقف اثنان من قبيلة ابن أبيّ نفسها (الخزرج)، وهما: أبو أيوب الأنصاري وعبادة بن الصامت[5].

وهكذا دأب الأنصار على متابعة دورهم الطليعي في الغزوات الإسلامية، التي سرعان ما استعادت حركتها، برغم الهزيمة التي حلّت بالمسلمين في أُحد. فقد أشارت الروايات إلى أن الرسول صلّى في ذلك اليوم[6] «ومعه وجوه الأوس

---

(1) المغازي، ج 1، ص 210.
(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 300. ابن سعد، غزوات، ص 43.
(3) حمزة بن عبد المطلب (هاشم)، عبد الله بن جحش بن رئاب (أمية)، مصعب بن عمير (عبد الدار) شماس بن عثمان بن الشريد (مخزوم) الواقدي، ج 1، ص 300. خليفة بن خياط، ج 1، ص 32.
(4) المغازي، ج 1، ص 318.
(5) المكان نفسه.
(6) يوم الأحد لثمانٍ خَلَوْن من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة. المصدر نفسه، ج 1، ص 334.

والخزرج، وكانوا باتوا في المسجد على بابه»[1]، حتى إذا كان الصباح دعاهم إلى طلب عدوهم، «والمسلمون لا يزالون يداوون جراحاتهم»[2]، حيث كان في بني سلمة (الأنصار) وحدهم أربعون جريحاً، فسار بهم وهو جريح أيضاً إلى «حمراء الأسد»[3] ومكثوا خمسة أيام، عادوا بعدها إلى المدينة. ومن اللافت جداً قيام هذه الغزوة في أعقاب هزيمة قاسية حلّت بالمسلمين، ولكن الرسول، كما يبدو، في تجاوزه جراح المدينة ومبادرته إلى استئناف الجهاد، كان يهدف إلى احتواء المحنة والحؤول دون استغلالها من جانب «المنافقين» وحلفائهم اليهود، مما يسوّغ دعوة الرسول بأن لا يخرج «إلاّ من شهد القتال أمس»[4]، أي يوم أُحد. ومن ناحية ثانية، كانت هذه الغزوة بمثابة رسالة إلى قريش التي لم يكن مقاتلوها قد ابتعدوا كثيراً عن المدينة، بأن الهزيمة لم تحبط المسلمين أو تمزّق وحدتهم، وإنما هم خلافاً لذلك، جبهة داخلية قوية ونظام حربي متماسك، حيث الأخير كان محوره الصراع مع قريش والقضاء على نفوذها الديني والسياسي في الحجاز، متجسداً ذلك في دعوة الرسول لطلحة بن عبيد الله إلى القتال: «إنهم.. لن ينالوا منا (قريش) مثل أمس، حتى يفتح الله مكة علينا»[5].

ولم يزل هذا المناخ الجهادي مسيطراً على المدينة، والغزوات تتلاحق متكاملة مع تنظيم الوضع الداخلي، بما ينطوي عليه من أخطار جسيمة، بينما الأنصار يتعمّق انخراطهم في هذا الدور الطليعي، فإذا هم حينذاك مادة هذه الغزوات أو معظمها، على نحو ما شهدته غزوة «بئر معونة»[6] إلى بني سُليم، حيث كان جُلّ أفرادها، كما قيادتها (المنذر بن عمرو الساعدي) من الأنصار، وقيل إنهم سبعون رجلاً قتلوا جميعهم غدراً في هذه الغزوة. ولكن نظام السرايا توقف

---

(1) «سعد بن عبادة، حباب بن المنذر، سعد بن معاذ، أوس بن خولي، قتادة بن النعمان، عبيد بن أوس». المغازي، ج 1، ص 334.

(2) روي أن أسيد بن حضير كان به سبع جراحات فأخذ سلاحه ولم يعرّج على دواء جراحه. المصدر نفسه، ج 1، ص 335. ابن سعد، غزوات، ص 49.

(3) على بعد عشرة أميال من المدينة على طريق العقيق، غزوات، ص 49.

(4) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 334.

(5) المصدر نفسه، ج 1، ص 337.

(6) هو ماء لبني سلم. المصدر نفسه، ج 1، ص 347.

بعدها نحو تسعة شهور، بسبب انهاك المسلمين في غزوة بني النضير على نحو ما سبقت الإشارة، إذ قام الرسول في السنة الرابعة للهجرة بغزوة بدر (الموعد)[1] التي كانت لها سمة تجارية، في وقت وُصف بأنه «عام جدب»[2]، فأقاموا في سوقها (بدر) «ثمانية أيام، وباعوا ما خرجوا به من التجارات فربحوا للدرهم درهماً وانصرفوا»[3]. وبعد شهور قليلة، حدثت غزوة «دومة الجندل». التي تندرج في سياق تحوّل جديد لسياسة المدينة، أولى خلاله الرسول جانباً من اهتمامه نحو الشام والقبائل العربية النازلة فيها، لاسيما في دومة الجندل التي وُصفت بأنها «سوق عظيم للتجار»[4] مما جعل هذه السوق - وفقاً لرأي المستشرق الأمريكي دونر Donner - تسيطر على أسواق الشمال وتعتمد عليها مكة في تموينها الغذائي[5]. بيد أن هذه الغزوة التي قادها الرسول في مطلع السنة الخامسة للهجرة، لم تشر الروايات إلى تكوينها وإلى دور الأنصار فيها، إلّا أن غزوة «المريسيع» أو «بني المصطلق» التي حدثت في العام التالي[6]، شارك فيها تحت قيادة الرسول أيضاً ثلاثون فارساً، بينهم عشرون من الأنصار، بالإضافة إلى ما ذكرته الرواية عن خروج «بشر كثير من المنافقين»[7] الذين ينتمون بمعنى ما إلى الجبهة الأنصارية، حيث كانت الفتنة الأكثر خطورة في حركة النفاق، ولكن وعي الأنصار أحبط هذه المحاولة التي استيقظت معها لحين عصبيات قريش والأنصار، وكادت تنتشر بسببها ألوية الحرب بين المسلمين في المدينة.

وفي غزوة «الخندق» التي عبأت فيها قريش كل حلفائها لخوض المعركة الفاصلة مع المسلمين، لاسيما بني النضير الذين «حزّبوا الأحزاب»[8] تحت قيادة قريش وقاموا بدور خطير في هذه الغزوة، دافع الأنصار بعناد عن مدينتهم،

(1) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 384.
(2) ابن سعد، غزوات، ص 59.
(3) المصدر نفسه، ص 60.
(4) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 403.
(5) Muhammadas Political Consolidation in Arabia up to the Conquest of Mecca. p. 245. Hartford Seminary Foundation LXIX, no. 4, 1979.
(6) يضعها الواقدي وابن سعد في العام الخامس.
(7) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 405.
(8) ابن هشام، ج 3، ص 127.

مسهمين مع الجميع في حفر «الخندق»[1]، دون أن يصرفهم ذلك عن رصد بني قريظة ومراقبة تحركاتهم، خشيةً منهم على الرسول، إذ أشارت الرواية إلى أن عبّاد بن بشر، كان «على حرس قبّة رسول الله (ص) مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة»[2]. وفي الوقت الذي اشتد فيه الحصار على المدينة، ونقض بنو قريظة عهدهم مع المسلمين، كان رؤساء الأنصار (سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير) يفاوضون هؤلاء على التزام العهد[3]، لجأ الرسول إلى فتح ثغرة في جبهة قريش، على نحو ما فعلته الأخيرة في جبهة المسلمين (بنو قريظة)، عندما فاوض بني غطفان (من الأحزاب) على «ثلث ثمر الأنصار»[4]، مقابل الخروج من الجبهة القرشية، مما أدّى إلى انهزام الأحزاب بعد وقت قصير «من غير قتال»[5].

وبعد غزوة قريظة، عهد الرسول إلى الأنصاري محمد بن مسلمة بغزوة «القرطاء»[6]، على رأس ثلاثين من المسلمين[7]، «فقتل نفراً منهم وهرب سائرهم واستاق نعماً وشاءً... ثم انحدر إلى المدينة»[8]. وفي غزوة «الغابة» على طريق الشام[9]، خرج الرسول، وأناب عنه بالمدينة كلاًّ من عبد الله بن مكتوم (من عامر بن لؤي) الذي كثيراً ما عهد إليه الرسول بهذه المهمة، وسعد بن عبادة، وهو في ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة[10]. بالإضافة إلى ذلك، فقد كان للأنصار حضور بارز في هذه الغزوة، التي أمدّها سعد «بأحمال تمر وبعشر جزائر»[11]، بعد انتهاء الرسول إلى «ذي قرد»، حيث أشار ابن

(1) الواقدي، مغازي، ج 2، ص 446.
(2) ابن سعد، غزوات، ص 73.
(3) الواقدي، مغازي، ج 2، ص 458.
(4) ابن سعد، غزوات، ص 73.
(5) المكان نفسه.
(6) بطن من بني بكر بن كلاب وكانوا ينزلون بناحية ضرية على بعد سبع ليالٍ من المدينة. الواقدي، مغازي، ج 2، ص 534. ابن سعد، غزوات، ص 78.
(7) ابن سعد، غزوات، ص 78.
(8) المكان نفسه.
(9) المصدر نفسه، ص 80.
(10) ابن هشام، ج 3، ص 175. ابن سعد، غزوات، ص 79.
(11) ابن سعد، غزوات، ص 81.

إسحاق إلى التحاق عدد كبير من فرسانهم (الأنصار) بالرسول، بقيادة سعد بن زيد (من بني كعب بن عبد الأشهل)[1]. وقد قتل أحد هؤلاء (محرز بن نضلة)، إذ لم يقتل غيره من المسلمين، بينما قتل خمسة من أعدائهم[2].

ولم تشر الروايات إلى أية تفاصيل عن دور الأنصار في السرايا أو الغزوات التالية، باستثناء سرية محمد بن مسلمة إلى «ذي القصة»[3] التي لم يحالفها النجاح، حيث جُرح الأخير وقتل أصحابه العشرة[4]، وباستثناء سرية خرج بها عبد الله بن رواحة، مستهدفةً أسير بن زارم الذي عيَّنه اليهود أميراً عليهم بعد مقتل رافع بن سلام بن أبي الحقيق (رمضان سنة ست للهجرة)[5]. وقد غلب على قيادة الغزوات بعد ذلك الطابع غير الأنصاري، دون أن تتوقف الروايات عند تشكيلها على غرار الحملات السابقة. وكان لزيد بن حارثة (من المهاجرين) نصيب وافر من قيادة الحملات في تلك الفترة، إذ تولى أمر ستٍ من السرايا، خمس منها تباعاً إلى بني سليم والعيص والطرف وحسمى ووادي القرى، وسادسة إلى أم قرفة، فضلاً عن سابعة بعد عامين، وهي غزوة «مؤتة» الشهيرة. أما بقية السرايا قبل غزوة الحديبية، فلم يكن بين قياداتها أحد من الأنصار، وإنما عُقدت راياتها للمهاجرين وحلفائهم، وهي السرايا التي قادها كلٌّ من عكاشة بن محصن الأسدي إلى «الغمر»[6] وأبي عبيدة بن الجراح إلى «ذي القصة» وعبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، وعلي بن أبي طالب إلى فدك، وكُرز بن جابر الفهري إلى عُرينة وعمرو بن أمية الضمري إلى مكة[7]!

---

(1) ابن هشام، ج 3، ص 176.
(2) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 549.
(3) على مسافة أربعة وعشرين ميلاً من المدينة. ابن سعد، غزوات، ص 85.
(4) الواقدي، مغازي، ج 2، ص 551. ابن سعد، غزوات، ص 85.
(5) غزوات، ص 92.
(6) ماء لبني أسد على بعد ليلتين من فيد. المصدر نفسه، ص 84.
(7) رُوي أن أبا سفيان قد خطّط لاغتيال الرسول، ولكن أسيد بن حضير اكتشف أمره، فبعث الرسول عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم بن حريس إلى أبي سفيان بمكة موصياً إياهما بقوله: «إن أصبتما منه غرّة فاقتلاه». ابن سعد، طبقات، ج 1، ص 207. أيضاً: ج 4، ص 304 و345. والواقدي، مغازي، ج 2، ص 550 وما بعدها.

ولقد كان العام الهجري السادس، منعطفاً هاماً في تاريخ الإسلام بالمدينة، حيث تجاوزت الأخيرة محنة الهجوم المكّي (غزوة الأحزاب) وتخلّصت من آخر القبائل اليهودية (قريظة)، كما أثبتت «الجماعة» فيها تماسكاً في مواجهة حركة النفاق إبّان غزوة بني المصطلق، بالإضافة إلى ذلك، فإن تحرّر المدينة من هاجس الخطر القرشي، قد أتاح لها الاهتمام بشؤونها الاقتصادية، استناداً إلى بعض الروايات التي أشارت إلى خروج بعض السرايا في تلك الفترة لأسباب تجارية، سواء إلى نواحي المدينة أو إلى التخوم الشامية، حيث يعتقد «مونتغمري وات» أن هذه السرايا ربما كانت أكثر أهمية في حياة المدينة مما أشارت إليه المصادر[1].

ولعلّ هذه السرايا التي استهدفت أطراف الشام، شكّلت إرهاصاً لحركة الفتوح التي مهّدت لها بدون شك هذه الغزوات، من خلال الاتصال بالقبائل العربية المتنصِّرة في الشام، في وقت كانت الدولة البيزنطية، منصرفة بعد انتصارها في حرب انتقامية على الفرس، إلى ترتيب أوضاعها في المنطقة، على نحو يتيح لها بسط نفوذها المباشر على بلاد الشام. ومن هذا المنظور تكتسب غزوة «الحديبية» أهميتها وتوقيتها المناسب، بعد تلك المنجزات التي حققتها المدينة، وجعلت في يدها زمام المبادرة، وما رافق ذلك من انعكاس سلبي على مكة التي أصبحت عملياً تحت حصار المسلمين. ولم يتردّد، حينذاك، هؤلاء من الإفادة من هذه المعطيات والقيام بغزوة تستهدف مكة نفسها، بما تنطوي عليه من عناصر القوة والنفوذ، كمعقلٍ للوثنية ومركز للتجارة وسوق للقبائل، ولكنهم آثروا أن تكون «غزوة سياسية»، يتوخّى المسلمون من خلالها الدخول سلماً إلى مكة لأداء العمرة، مما أحدث ارتباكاً بين قادة قريش، لم يجدوا معه سوى الاعتراف بـ «حق» الرسول وأصحابه في الاعتمار الذي كان في المقابل اعترافاً من جانب المسلمين بقدسية الكعبة، شأن قريش والقبائل الحجازية، مع الفارق في المضمون الديني بين النظرتين الإسلامية والوثنية. وفي ضوء ذلك تتّخذ غزوة الرسول صفة «عربية» وليست «مدينية» فقط، بعد استنفاره «العرب ومن

(1) وات، محمد في المدينة، ص 67.

حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه»، حسب رواية ابن إسحاق[1]. ولكن يبدو أن تلبية القبائل كانت محدودة، إذ «أبطأ كثير من الأعراب»، حسب الرواية نفسها[2]، كانت لا تزال مصالحه مشتبكة بالتجارة القرشية، فارتأى التريّث إزاء موقف لم يكن بعد محسوماً في الصراع بين مكة والمدينة.

وهكذا غادر الرسول إلى مكّة في آخر سنة ست للهجرة، «بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب»[3]، وقد تراوحوا بين ألف وأربعمائة وألف وستمائة، كان بينهم من كبار الصحابة أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وعمر بن الخطاب (من المهاجرين) وسعد بن عبادة وعبّاد بن بشر والحباب بن المنذر ومحمد بن مسلمة (من الأنصار)[4]. وقد انتهوا إلى الحديبية[5]، بعد تضليل حملة قرشية[6] أرسلت لمنعهم من دخول مكة، حيث عقدت المعاهدة[7] الشهيرة التي تحمل اسم المكان الذي عسكر فيه المسلمون، منطويةً على انتصار سياسي كبير، كان مقدّمة فعلية لفتح مكة، بعد أقل من عامين فقط.

ولعلّ ما أسفرت عنه معاهدة الحديبية، كان على جانب كبير من الأهمية، حيث القبائل العربية في الحجاز، أخذت تعيد النظر في مواقفها، مما أسهم في اختلال موازين الصراع العسكري لمصلحة المدينة. بيد أن هذه المعاهدة ارتبطت بمؤشرين خاصين هما: غزوة «خيبر» وتصفية المعاقل اليهودية في الحجاز، والتحرّك باتجاه الشام (رسائل النبي إلى هرقل وعظيم بصرى ورؤساء القبائل العربية)[8]، دون أن يكون هذان المؤشران منفصلين عن بعضهما، أو أن

(1) ابن هشام، ج 3، ص 197.
(2) المكان نفسه.
(3) المكان نفسه.
(4) الواقدي، مغازي، ج 2، ص 573-575. ابن سعد، غزوات، ص 95-99.
(5) اسم بئر عرف به المكان نسبة إليه وكان يقع على بُعد تسعة أميال من مكة. الواقدي، مغازي، ج 3، ص 571.
(6) ابن هشام، ج 3، ص 198.
(7) راجع تفاصيل المعاهدة في سيرة ابن هشام، ج 3، ص 203.
(8) ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 211.

يكونا منفصلين عن معاهدة الحديبية[1]، إذا ما توقفنا عند أهمية الشام، فضلاً عن اليهود في تجارة قريش. فقد كانت خيبر التي تقع على مسافة غير بعيدة من المدينة[2]، من أمنع معاقل اليهود في الحجاز، لاسيما وأن فلولاً منهم قد تجمّعوا فيها بعد إخراجهم من المدينة، دون أن يكون أمرها - وهي التي وُصفت بأنها «ريف الحجاز طعاماً وودكاً وأموالاً»[3] - على شيء من السهولة، إذ جاءت دعوة الرسول إلى استنفار المسلمين، بأن لا يخرج معه «إلاّ راغب في الجهاد»[4]، معبّرة عن خطورة هذا المعقل الذي يعجّ بالمقاتلين ويمتلىء بالسلاح[5].

ولم تُشر الروايات إلى أسماء الصحابة الذين رافقوا الرسول في هذه الغزوة الشهيرة، باستثناء ما أوردته عن ثلاثة عُقدت لهم الرايات وهم: علي بن أبي طالب (من المهاجرين) والحباب بن المنذر وسعد بن عبادة (من الأنصار)[6]، فضلاً عن محمد بن مسلمة الذي انتقلت إليه الراية بعد جرح الأخير[7]، وباستثناء ما تردّد من أسماء في سياق بعض الروايات، كان جلّها من الأنصار، الذين أسهموا - إلى جانب علي -[8] بدور كبير في فتح حصون خيبر، وكان في طليعتهم سعد بن عبادة موفد الرسول لمفاوضة عيينة بن حصن، رئيس غطفان وحليف اليهود[9]، وقائد الحملة إلى حصن «ناعم»، حيث أصيب سعد بجراحه كما سبقت الإشارة. كما يتردّد اسم عبّاد بن بشر، الذي بعثه الرسول على فوارس الطليعة إلى خيبر[10]، بالإضافة إلى ثمانية آخرين[11] سقطوا في هذه الغزوة

(1) ابن هشام، ج 3، ص 211.
(2) على ثمانية برد منها، ابن سعد، ص 106.
(3) الواقدي، مغازي، ج 2، ص 637.
(4) ابن سعد، غزوات، ص 106. راجع أيضاً: الواقدي، ج 2، ص 634.
(5) الواقدي، مغازي، ج 2، ص 637.
(6) المصدر نفسه، ج 2، ص 649. ابن سعد، غزوات، ص 106.
(7) المصدر نفسه، ج 2، ص 653.
(8) ابن هشام، 3، ص 211.
(9) عرض عليه باسم الرسول بأن يعطيه محصول سنة من تمر خيبر، إن أظهر الله المسلمين عليها. الواقدي، ج 2، ص 650.
(10) المصدر نفسه، ج 2، ص 640.
(11) محمود بن مسلمة (أخو محمد بن مسلمة، أبو الضّياح بن النعمان، الحارث بن حاطب، =

وكانوا في معظمهم قد شاركوا في موقعة بدر، مما يعطي لدورهم ـ أي الأنصار ـ أهمية في فتح خيبر، شأن الغزوات الكبيرة الأخرى التي كان هؤلاء وقودها في تلك المرحلة.

وهكذا يحقق نظام السرايا نجاحات سياسية وعسكرية هامة، فضلاً عن الاقتصادية التي انعكست إيجابياتها على الوضع الاجتماعي في المدينة، على نحو تجاوزت فيه الأخيرة متاعبها وأزماتها الداخلية. فقد ترافق التطوّر النوعي لهذا النظام، لاسيما في العام الهجري السابع، مع تغيّرات أساسية في موازين القوى بين قريش والمسلمين، بعد أن حقّق هؤلاء إنجازاً عسكرياً كبيراً في خيبر، لم يكن أقل أهمية منه الإنجاز السياسي في عمرة «القضاء»، بما انطوت عليه من اختراق للحصار القرشي، سرعان ما وظّفه الرسول على نطاق واسع، من خلال رسائله إلى الملوك والأمراء، من غير أن تكون الأخيرة منفصلة عن «الدخول» إلى مكّة. فقد بدت، حينذاك، وحدة الحجاز ـ نواة الدولة الإسلامية ـ أمراً واقعاً، في الوقت الذي انكفأت فيه قريش على عزلة سياسية، وباتت محاصرة في عقر دارها، بعد نجاح المسلمين في ضرب ركائز «الأحزاب» الحليفة (اليهود وتحجيم بعض القبائل الدائرة في فلكها (غطفان[1]، سليم[2]...).

وقد تردّد بين قادة سرايا هذا العام، «أنصاري» كان له دور بارز في «اجتماع السقيفة» فيما بعد، هو بشير بن سعد الذي غزا «في ثلاثين رجلاً بني مرّة بفدك»[3]، حيث جرح بعد قتال شديد[4]. وبعد شهرين بلغت المدينة أخبار عن عزم عيينة بن حصن الذي مرّ ذكره في غزوة خيبر، الزحف إليها في جمع من غطفان[5]، فانتدب الرسول بشير بن سعد على رأس سرية من ثلاثمائة رجل،

= عُديّ بن مرّة بن سراقة، أوس بن حبيب، أنيف بن واثلة، مسعود بن سعد، بشر بن البراء بن معرور. المصدر نفسه، ج 2، ص 700. ابن سعد، طبقات، ج 3، ص 208.

(1) الواقدي، مغازي، ج 2، ص 650. ابن سعد، غزوات، ص 92 و 120.

(2) ابن سعد، غزوات، ص 86 و 123.

(3) ابن سعد، غزوات، ص 119.

(4) الواقدي، ج 2، ص 723.

(5) ابن سعد، غزوات، ص 120.

توجّه بهم إلى الخباب[1]، حيث أقام عيينة وأصحابه. وقد أسفرت الغزوة عن قتل رجل من غطفان كان يرصد تحرك المسلمين، وأسر اثنين في مناوشة سريعة، انكفأ على أثرها عيينة منهزماً إلى دياره[2]. وكان لهذه السرية أهميتها على ما يبدو، انطلاقاً مما تمثّله غطفان من نفوذ قبلي واسع، دفع عيينة إلى أن يفكر بغزو المدينة، ومن ثمّ يأبى على نفسه بعد الهزيمة «أن يصير تابعاً لمحمد»، عندما نصحه حليف[3] له من مرّة بذلك. ولعلّ اختيار بشير بن سعد لهذه المهمة، يرجّح ما يمتاز به من شجاعة، ربما كانت حافزاً لأبي بكر وعمر، عندما أجمعا على اختياره قائداً لهذه السرية، بعد استشارة الرسول لهما فيما يرويه الواقدي[4]. ولقد تعزّز ذلك في «عمرة القضاء» التي حشدت لها المدينة ألفين من الرجال، عُقدت القيادة الفعلية لإثنين منهم كانا من الأنصار وهما: بشير بن سعد «على السلاح»، ومحمد بن مسلمة «على الخيل»[5].

وإذا كان العام السابع، بما تخلّله من منجزات كبيرة قد شكّل بداية المنعطف في تاريخ الإسلام، وذلك عبر مدخلين اثنين، كان للأنصار فيهما دور بارز، وهما الدخول العسكري إلى خيبر والدخول السلمي إلى مكة، فإن العام الثامن، هو المنعطف الحقيقي للإسلام، انطلاقاً من غزوة «مؤتة» التي وصفها ابن كثير بأنها «كانت إرهاصاً لما بعدها من غزو الروم وإرهاباً لأعداء رسول الله»[6]، وغزوة «الفتح» الشهيرة التي حسمت الصراع بين الإسلام والوثنية لمصلحة الأوّل، بعد نيف وعشرين من السنوات الصّعاب. وقد حققت حملة مؤتة، برغم هزيمة المسلمين نتائج سياسة هامة، سواء تمثّلت بتفعيل مبدأ الشهادة في الإسلام، دون التوقف عند قوة العدو أو كثرته، معبّراً عنه موقف الأنصاري عبد الله بن رواحة، أحد قادة الغزوة، بقوله: «إما ظهور وإما شهادة»[7]، أو في استنفار

(1) أرض من غطفان. الواقدي، مغازي، ج 2، ص 727.
(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 728-729.
(3) الحارث بن عوض المرّي. المصدر نفسه، ج 2، ص 729.
(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 728.
(5) ابن سعد، غزوات، ص 121.
(6) ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول، ص 173.
(7) مغازي عروة بن الزبير، ص 205.

القبائل العربية في الشام ودعوتها إلى فك إرتباطها بالدولة البيزنطية والالتحاق بالدولة الاسلامية في المدينة، فضلاً عن تمهيدها المباشر لفتح مكة التي استغلت هزيمة المسلمين في مؤتة، بإقدامها على نقض المعاهدة معهم، مما أدّى إلى اتخاذ قرار «الفتح»، تحت تأثير الهزيمة ومقتل قادة الحملة الثلاثة (زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة)[1].

وقد حرص الرسول على تفادي سلبيات الهزيمة على المدينة، وإحباط محاولات استغلالها من جانب قريش، عندما لجأ إلى تنشيط نظام السرايا، وتسيير ثلاث حملات خلال مدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر، وهي الفاصلة ما بين غزوة مؤتة وفتح مكة الذي تمّ في الشهر الرابع (رمضان سنة ثمان للهجرة). ولعلّ ما يلفت الانتباه، هو الحضور اللاّفت للأنصار في هذه السرايا، بدءاً بسرية «الخبط»، بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح الذي استهدف في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار حيّاً لجهينة[2]. وقد تردّد الأول مرّة في هذه السرية، اسم قيس بن سعد بن عبادة، الذي سيكون له دور بارز في أواخر العهد الراشدي. فلم يكن، حينذاك، المسلمون قد تزوّدوا بما يكفيهم من الزاد في مسيرتهم البعيدة عن المدينة إلى «ساحل البحر»[3]، فعانوا الجوع واضطروا إلى تناول الخبط[4] الذي نُسبت إليه هذه السرية، وكادوا يقضون جوعاً، لولا مبادرة قيس وحسن تصرفه في التغلّب على هذه الأزمة[5]. كما تردّد اسم أنصاري آخر، هو أبو قتادة بن ربعي في سريتين صغيرتين، الأولى إلى مضر[6] «ومعه خمسة عشر رجلاً إلى غطفان فقتلوا من أشرف لهم واستاقوا النعم»[7]، والثانية إلى «بطن

(1) ابراهيم بيضون، حملة مؤتة، مقارنة للمشروع السياسي الأول للدولة الاسلامية في بلاد الشام ـ أوراق الندوة الثانية للمؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام ـ 1987، ص 77.

(2) تقع على مسافة خمس ليالٍ من المدينة. الواقدي، مغازي، ج 2، ص 774.

(3) المكان نفسه.

(4) نوع من الورق. المكان نفسه.

(5) رُوي أن قيساً استدان من رجل من جهينة جزراً يدفع ثمنها تمراً بالمدينة. فكان يذبح كل يوم واحداً منها. ـ الواقدي، ج 2، ص 775-776. الطبري، ج 3، ص 105.

(6) هي أرض محارب في نجد. غزوات، ص 132.

(7) المكان نفسه.

إضم»[1]، حيث ترادفت هذه السرية مع غزوة الفتح (مكة).

وكان الرسول قد قرّر في ذلك الوقت حسم المسألة المكية، بعد نقض قريش عهدها مع المدينة، عندما أعانت حلفاءها بني نفاثة وهم فرع من بني بكر في اعتدائهم على ماء لبني كعب (من خزاعة) من حلفاء الرسول وأمدّتهم بالسلاح والرجال[2]، حيث كان للقبيلة الأولى ثأر قديم على الثانية. وقد رأى الرسول أن الوقت قد حان لدخول الإسلام إلى مكة، برغم تراجع قريش عن موقفها، وقدوم شيخها أبي سفيان إلى المدينة لتسوية الأزمة وتجديد العهد[3]. وفي تلك الأثناء تخرج سرية أبي قتادة الثانية (إلى بطن إضم)، صارفةً الأنظار عن الخطة الأساسية، ومُدخلةً في روع قريش أن الرسول قد توجّه إلى تلك الناحية[4].

وقد حشد المسلمون لحملة «الفتح»، ما لم يحشدوا لأية غزوة سابقة، إذ بلغ تعدادها، كما يروي، ابن اسحاق[5] عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وحلفائهم، أو اثني عشر ألفاً، حسب رواية عروة بن الزبير[6]. ولكن اللافت في هذه الحملة، أن عدداً من القبائل شارك فيها بنسبة عالية وهي: اسلم وغفار وجهينة وسُليم في رواية عروة[7]، مضافاً إليها مزينة وتميم وقيس وأسد في رواية ابن إسحاق[8]، فضلاً عن أشجع في مروية ابن سعد[9]، مما أحدث تغييراً فعلياً في التوازن السياسي والعسكري بين المسلمين وقريش التي أخذ يتراجع نفوذها لدى القبائل بعيد غزوة الحديبية وعمرة القضاء، في الوقت الذي كانت

(1) بين ذي خشب وذي المروة على بعد ثلاثة برد من المدينة. المصدر نفسه، ص 133.
(2) عروة بن الزبير، مغازي، ص 208. راجع ابن سعد، غزوات، ص 134، وابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 239.
(3) ابن سعد، غزوات، ص 134.
(4) المكان نفسه. الطبري، ج 3، ص 106-107.
(5) ابن هشام، ج 3، ص 47.
(6) مغازي، ص 209.
(7) المكان نفسه.
(8) ابن هشام، ج 3، ص 47.
(9) غزوات، ص 135.

تقترب فيه الأخيرة من المسلمين، متقاطعة معهم عبر العلاقة الجديدة مع حاضرة قريش والعرب التي كان ولاء القبائل لها منطوياً على اعتراف بشرعية هذا الدور، وعلى اعتراض في المقابل على المسّ به، كما جرى إبّان حروب الفجار التي وجدت فيها القبائل تمرّداً على هذه الشرعية[1].

الأنصار والمهاجرون:

كان فتح مكة تتويجاً لانتصار الإسلام على الوثنية، وتكريساً للتحوّل الكبير في حياة العرب من البداوة إلى التحضر، معبّرة عنه بصورة واضحة الهجرة إلى يثرب، بمثل ما عبّر عنه الاسم الجديد للأخيرة (المدينة) التي أصبحت مقرّ الجماعة الإسلامية، خلافاً لمكة التي ظلّ الطابع البدوي متغلّباً عليها، كحاضرة للقبائل وسوق تجارية لها. ولكن هذا «الفتح» - الذي تمّ صلحاً دون أن يمسّ الموقع الديني التاريخي لمكة أو يُحدث تغييراً بارزاً في تكوينها الاجتماعي، أو يهدّد دورها التجاري - انعكس سلبياً في جانب منه على وحدة الجماعة، التي ظلّت متماسكة حتى ذلك الحين. فثمة اتجاه جذري بين الأنصار، شكّل الدعامة الأساسية لهذه الوحدة، وكان ممثلاً بأبرز زعمائهم وأقربهم إلى الرسول، سعد بن عبادة، وجد في صيغة «الصلح» موقفاً لم يستوعبه تماماً من جانب الرسول والمهاجرين، وحمله على اتخاذ مسافة ما من هؤلاء والانطواء على شعور لا يخلو من الحذر منذ ذلك الوقت. وقد روى الواقدي في هذا السياق، أن عدد الأنصار بلغ أربعة آلاف رجل، بينهم خمسمائة من الفرسان، مقابل سبعمائة من المهاجرين بينهم ثلاثمائة من الفرسان[2]، مما يعني أن الأغلبية الراجحة كانت للأنصار في هذه الحملة. وكانت راية الرسول مع سعد بن عبادة، «فبلغه - أي الرسول - عنه في قريش كلام وتواعد لهم، فأخذها، فدفعها إلى ابنه قيس بن سعد»، حسب رواية ابن سعد[3]. بيد أن رواية أخرى أكثر تفصيلاً، ذكرت أن

(1) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 15-16. السهيلي، الروض الأنف، ج 1، ص 209. ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية، ص 76-77.

(2) الواقدي، ج 2، ص 800.

(3) غزوات، ص 135.

الرسول دفع بالراية إلى قائد من المهاجرين، إذ نسب رجل من هؤلاء إلى سعد بأنه قال والمسلمون على أبواب مكة: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلّ الحرمة»[1]، وشكا إلى الرسول قائلاً: «ما نأمن من أن تكون له - أي سعد - في قريش صولة»[2]، مما حدا بالرسول إلى القول لعلي: «ادركه فخذ الراية فكن أنت الذي تدخل بها»[3]، حسب رواية الطبري.

ولعلّ غزوة «الفتح» قد أظهرت ما تبطنه العلاقة بين الأنصار والمهاجرين من تناقض لم يكن مطروحاً بهذا الوضوح في المدينة. فقد أسهم فتح مكة في تعديل التوازن لمصلحة المهاجرين الذين تجاوزوا، بعد دخول الجناح غير المهاجر من قريش في الإسلام، عقدة الأقلية في الجماعة. كما أن المدينة لم تعد مدينة الأنصار، بقدر ما تكرّست بعد الفتح، عاصمة للدولة الإسلامية بعد اتخاذ الرسول هذا القرار الذي كان في جانبٍ منه تكريماً للأنصار[4]، ولكنه في الجانب الأساسي، كانت له أبعاد سياسية وجغرافية وقبلية، لم تعد منعكسة فقط على الطرفين المؤسسين في الإسلام. ومن هذا المنظور يمكن القول إن هذه الغزوة، مرموزاً لها بانتزاع «الراية» من «رجل» الأنصار سعد بن عبادة، قد تركت نتائج خطيرة على البنية الاجتماعية لدولة المدينة، من غير أن تكون أسبابها بالضرورة منطلقة من الدوافع ذاتها لدى المهاجرين والرسول، الذي كان لموقفه من مكة خلفية دينية في المقام الأول، فضلاً عن الخلفية السياسية إزاء أهلها، بما ينطوي عليه هذا الموقف من «تكريم» لقريش، قد لا يبتعد عن موقفه إزاء الأنصار، على نحو ما سبقت الإشارة. ولعلّ العباس بن عبد المطلب - عمّ الرسول - كان له دور في هذه المسألة، عندما توجّه إلى الرسول في ذلك الحين، طالباً إليه بأن يُظهر لقريش «أماناً يطمئنون إليه»، حسب رواية عروة بن الزبير[5]، فكان ذلك

(1) عروة بن الزبير، مغازي، ص 28. الطبري، ج 3، ص 118. ورد في السيرة الحلبية قول آخر مضاف إلى هذه العبارة: «اليوم أذلّ الله قريشاً»، ج 3، ص 22.

(2) الطبري، ج 3، ص 118.

(3) ابن هشام، ج 3، ص 36. الطبري، ج 3، ص 36.

(4) ابن هشام، ج 3، ص 43.

(5) المغازي، ص 210.

القـرار الذي أتـاح لأعداء الأمس القـريب، اتخاذ مـوقع في «الجـماعة»، لم يبلغ موقع الروّاد والمجاهدين الأوائل، ولكنه عبّر في النتيجـة عن طبيعة المـرحلة التي رجحت فيهـا الصفة السيـاسية للدولـة، بالمقـارنة مـع المرحلة السـابقـة، ذات الطبيعة الرساليـة بشكل عـام. وفي ضوء هـذه المعطيـات يتخذ «الفتـح» طابعـاً سياسياً، تجلّى في مبادرة رؤساء مكة إلى فتح أبوابها أمام حملة الرسول، التي يبدو أنها لم تفاجىء هؤلاء كثيراً، دون أن ننسى هنا الدور البارز للعباس في التمهيـد لهذا «الفتح» وتهيئة الأجواء الملائمة لدخول الرسول والمسلمين[1].

كانت تلك إذن دوافع القرار إزاء قريش بُعيـد فتح مكـة، مكتسباً ربمـا شيئاً من الخصوصية القرشية، قد تماثله ما كان لـلأنصار من خصـوصية بعـد الهجرة إلى المدينة، حيث الأولوية كانت لوحدة الجماعة، متّسمة العلاقة معها بالمـرونة، ولكن دون أن يتعدّى ذلك الجانب الاجتماعي ـ السياسي في كلا المـدينتين. ومن هذا المنطلق تأتي وصية الرسول حاسمة إلى «أمـرائه» المسلميـن، حيـن أمـرهم ـ فيما يرويـه ابن اسحاق ـ «أن يـدخلوا مكة وأن لا يقـاتلوا إلاّ من قاتلهم، إلاّ أنه قد عهد في نفر سمّاهم أمر بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبـة»[2]، ولكن هذه الاعتبارات لم تكن ببال المهاجرين تمامـاً بعد التـام وحدة قـريش في مكة، التي كـان يقابلهـا تضعضع وحـدة الأنصار بصـورة تـدريجيـة، في وقت أخـذت تـتراجع فيـه صيغة «المؤاخـاة»، متأثـرة بمتغيّرات «الفتـح» واختلال التـوازن بين الـطرفين. ولعـلّ الأنصار بـدأوا، حينذاك، يفكّـرون بدورهم الآتي في الـدولـة الإسلامية، ويتطلعون بصـورة أكثر واقعيـة إلى مرحلة مـا بعد الـرسول، الـذي شكّل في تعاطفه معهم صمّام التوازن في هذه الدولة.

وإذا كـانت هـواجس الأنصـار قـد بـدت ثقيلة في ذلـك الـوقت، إلاّ أنها لم تنعكس على التزامهم الـذي بقي صافيـاً، وإن أصاب حمـاستهم بعض الفتور، عـلى نحو مـا توحي بـه رواية الـزهري في سيـاق خبرهـا عن وقعة حنـين[3]، إذ تـوجهت الـدعـوة، أولاً، إلى «معشـر الأنصـار ثم قُصرت عـلى بني الحـارث بن

(1) المكان نفسه.

(2) ابن هشام، ج 3، ص 38.

(3) حدثت في الشهر التالي لغزوة الفتح (شوال سنة ثمان للهجرة).

الخزرج»[1]، الذين وصفتهم الرواية بأنهم «كانو صُبَّراً عند اللقاء، صُدقاً عند الحرب»[2]. ويبدو أن حملة «الفتح» قد خرجت بكامل عددها إلى حنين، مضافاً إليها «رجال من مكة»[3] حدّدهم ابن سعد بألفين[4]، بينما شكّكت الروايات الأخرى بأمر هؤلاء الذين كانوا «ينتظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم»[5]، حسب رواية الواقدي. ولذلك كانت هذه الغزوة (حنين) محفوفة بالأخطار، لما تمثّله هوازن من موقع بارز في الجبهة المعارضة للإسلام، تلك التي كان من أركانها، بالإضافة إلى هوازن، قريش وثقيف.

ولعلّ الأنصار شكّلوا أغلبية هذه الغزوة، إذا ما توقفنا عند تشكيل القيادة التي كان بينها من كبار المهاجرين: عليّ بن أبي طالب وسعد بن أبي وقّاص وعمر بن الخطاب، حيث انعقد لواء للأول، وانعقدت رايتان للآخرين فيما يرويه الواقدي[6]. أما الأنصار، فقد ارتفع فوقهم ثلاثة عشر لواء وراية في حنين، في طليعتها «لواء الخزرج الأكبر» مع سعد بن عبادة، ولواء آخر للخزرج مع الحباب بن المنذر، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير، وفي «كل بطن من الأوس والخزرج لواء أو راية»[7]، حسب الرواية نفسها. ولذلك فإن دور الأنصار كان شديد الأهمية في هذه الغزوة، إلى درجة أنهم رجّحوا كفة الحرب التي مالت، أولاً، إلى هوازن، بعد «انكشاف خيل بني سليم»[8] وتراجعهم منهزمين «ومن تبعهم من أهل مكة»[9]، مما حدا بالرسول إلى استنهاض القوم، لاسيما «أنصار الله... ورسوله»[10]، «فرجعت الأنصار»[11]، وعلى رأسهم يستثير

(1) المغازي النبوية، ص 92.
(2) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 899.
(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 894.
(4) غزوات، ص 150.
(5) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 894-895. راجع أيضاً: مغازي عروة بن الزبير، ص 214.
(6) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 895.
(7) المصدر نفسه، ج 3، ص 895-896.
(8) ابن سعد، غزوات، ص 151.
(9) المكان نفسه.
(10) المكان نفسه.
(11) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 898.

حماستهم، كل من سعد بن عبادة وأسيد بن حضير، حتى قيض للمسلمين استعادة زمام الموقف وتحقيق نصر باهر في حنين[1]، تلك الوقعة التي تعتبر في الواقع، استمراراً لفتح مكة الذي اكتملت صورته في الغزوة التالية، مع انهيار الركن الثالث للجبهة الوثنية الكبيرة في الحجاز.

ولقد تحوّل المسلمون بعد ذلك إلى الطائف، وحاصروا ثقيفاً في حصنها المعروف باسم الأولى[2]، حيث اتخذ الحصار طابعاً اقتصادياً، تمثّل بقطع المسلمين «شيئاً من كروم ثقيف»[3]، فضلاً عن تهديدها بقطع كل رجل منهم «خمس نخلات»[4]، مما أثار جزع الأخيرة التي كانت تعتمد على الزراعة بصورة أساسية، لاسيما الكروم التي اشتهرت بها الطائف. وقد أسهم الحصار الاقتصادي في إضعاف مقاومة ثقيف وحملها على الرضوخ، برغم ما ذكره ابن اسحاق، بأن «قتالاً شديداً»[5] وقع بينها وبين المسلمين، إذ اقتصر الأمر على تراشق بالنبال، ما لبث أن توقف مع رفع الحصار بأمر من الرسول، بعد «خمس عشرة ليلة»[6] مضت عليه. ولم تُشر الروايات التاريخية إلى تفاصيل تتعلّق بتشكيل هذه الحملة تعداداً وقيادة، شأن الغزوات الكبيرة التي سبقت الإشارة إليها. ولكن هذه الغزوة وهي نفسها التي استهدفت حنين، حيث قاتلت ثقيف إلى جانب هوازن وانسحبت بعد هزيمة الأخيرة إلى حصنها في الطائف[7]، كانت على ما يبدو من أكبر غزوات المسلمين في الحجاز. فقد مهّدت لها سرية الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين، وما لبث الرسول أن قدم بأربعمائة من قومه إلى الطائف[8]، واستخدمت فيها أسلحة للحصار لم يسبق للمسلمين استخدامها من قبل[9].

(1) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 898.
(2) شوال سنة ثمان للهجرة. ابن سعد، غزوات، ص 158.
(3) عروة ابن الزبير، مغازي، ص 216. ابن سعد، غزوات، ص 158.
(4) المكان نفسه في المصدرين السابقين.
(5) ابن هشام، ج 4، ص 94.
(6) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 936.
(7) الطبري، ج 3، ص 126.
(8) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 923.
(9) الدبابات والمجانيق والضبور. ابن هشام، ج 4، ص 90. الواقدي، مغازي، ج 3، ص 923.

وقد يكون ذلك من الأسباب التي حملت الرسول على الارتحال عن الطائف ورفع الحصار عنها، إذ كانت ساقطة فعلاً بعد هزيمة حلفائها «الأحزاب»[1] وانكفاء ثقيف وراء حصنها مدافعة عن وضعها المعنوي، أكثر من دفاعها عن قضية ما، أو الأرض التي باتت تحت سيطرة المسلمين. أما عن دور الأنصار في هذه الغزوة، فلا نكاد نعثر إلّا على القليل من أخباره التي لا تختلف في الواقع عن أخبار المهاجرين والقبائل الحجازية. فقد تردّدت إشارات إلى سعد بن عبادة وأسيد بن حضير في سياق الحديث عن استسلام الثقفيين الأوائل، وإلى دور لهما في تعليم هؤلاء «السنن وقراءة القرآن»[2]. كما تردّد ذكر الأنصار بين شهداء غزوة الطائف الأثني عشر، الذين سقطوا تحت جدار الحصن، وكان بينهم أربعة من الأنصار، ثلاثة من الخزرج والآخر من الأوس[3].

كانت غزوة الطائف آخر العمليات العسكرية في العام الثامن، ذلك العام ـ المنعطف الذي شهد انحسام المسألة الوثنية في الحجاز، فضلاً عن بداية التحوّل في موقف القبائل نحو الإسلام، والانخراط في صفوفه، كمادة مقاتلة، بعد اقتصار هذا الدور من قبل على المهاجرين والأنصار. كما حُسمت في هذا العام مسألة «المركز» في الدولة، إذ تخوّف الأنصار من انتقاله إلى مكة، متسائلين في هذا الصدد بما نسبه إليهم ابن هشام: «أترون رسول الله (ص) إذا فتح الله أرضه وبلده يقيم بها»[4]، لاسيما بعد توزيع غنائم حنين على «قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء»، حسب رواية ابن إسحاق[5]، مما جعل سعد بن عبادة يستغرب استثناء قومه من العطاء. ولكن الأنصار حازوا «عطاءً» كبيراً، كانوا بأمسّ الحاجة إليه، حملته إليهم مقولة الرسول الشهيرة: «أفلا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ولو سلك الناس

(1) ابن سعد، غزوات، ص 159.
(2) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 932.
(3) ابن هشام، ج 3، ص 96-97. الواقدي، مغازي، ج 3، ص 938.
(4) المصدر نفسه، ج 4، ص 43.
(5) الطبري، ج 3، ص 138.

شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار»[1]. على أن هذا التوازن، كان لمكة أيضاً نصيب فيه، عندما حرص الرسول على ارضاء قريش، باستخلاف عتاب بن أسيد، من البيت الأموي أميراً عليها[2].

وإذا كانت الغزوات الثلاث (مكة، حنين، الطائف)، قد انطوت على مشاركة جزئية من قبائل الحجاز، فإن العام التاسع شهد حضوراً لافتاً للأخيرة، لاسيما السرية التي حدثت في مطلعه إلى بني تميم، وكان قوامها خمسين فارساً من العرب، «ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري»[3]. كما يتضح دور هذه القبائل في بعض السرايا، مثل سرية «القرطاء» إلى بني كلاب وسرية «الشعبية»[4] التي تمت في أعقابها. ولعلّ ما يعنيه ذلك، أن المسألة القبلية التي كانت على وشك الحسم في ذلك العام، أصبحت من عناوينه البارزة، دون أن تكون غزوة «تبوك» و«عهودها» القبلية[5]، منفصلة عن هذه المسألة، مما جعل العام التاسع، عام القبائل التي تواكبت إلى المدينة، بما فيها ثقيف، «معاهدةً» الرسول على الإسلام[6].

بيد أن الأنصار لم يغيبوا عن تلك الأحداث الهامة، أو يخبو دورهم فيها، وإنما ظلوا مستنفرين للجهاد، متقدمين الصفوف في الغزوات التي ظلّت تدفع بها المدينة نحو أعدائها في تلك المرحلة. ولكن ثمة ما يستوقفنا في هذه الغزوات، هو تراجع الدور القيادي للأنصار، إذ لم تُشر الروايات إلى مثل ذلك في سياق أخبار الغزوات الأخيرة من عهد الرسول. فقد تردّد ذكرهم فقط في سرية الفُلس (صنم طي بقيادة عليّ بن أبي طالب، حيث كان قوامها مائة وخمسين من الأنصار، بينهم وجوه من الأوس والخزرج، وليس فيهم مهاجر

(1) المكان نفسه. راجع أيضاً الواقدي، مغازي، ج 3، ص 958.
(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 139.
(3) ابن سعد، غزوات، ص 160. راجع أيضاً ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 203.
(4) ساحل بناحية مكة. الواقدي، غزوات، ج 3، ص 983.
(5) المصدر نفسه، ج 3، ص 1031 وما بعدها.
(6) الطبري، ج 3، ص 140.

واحد، حسب رواية الواقدي[1]. ولعلّ هذه السرية التي جمعت الأنصار إلى عليّ دون غيرهم من المسلمين، كان لها نتائجها فيما بعد على موقف هؤلاء السياسي، وميلهم إليه إبّان طرح مسألة الخلافة[2]. وعدا هذه السرية، فإن دور الأنصار، استمرّ متراجعاً، ولا نكاد نجد في الروايات ما يخالف هذا الواقع، باستثناء ما أشارت إليه عن استخلاف الرسول لمحمد بن مسلمة على المدينة، كما يرجّح ابن سعد، بعد خروجه في غزوة تبوك[3]. وقد كان مع آخرين من كبار المهاجرين والأنصار، قد أسهموا بتمويل هذه الحملة، بينهم، بالإضافة إليه، العباس بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن عبادة وعثمان بن عفان الذي كان «أكثرهم نفقة»[4] كما يروي الواقدي. كما يتردّد في رواية ثانية للأخير، ذكر أسيد بن حضير في هذه الغزوة، محرّضاً الرسول على قتل المنافقين بقوله: «إن مثل هؤلاء يتركون.. حتى متى نداهنهم وقد صاروا اليوم القلّة والذلّة وضرب الإسلام بجرانه»[5]. ولكن الرسول، كما في المواقف السابقة إزاء هذه المشكلة، لم يماشِ سيد الأوس في حماسته، ولم يزل كارهاً ـ فيما يرى ـ «أن يقول الناس أن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه»[6].

على أن إهمال الروايات للأنصار في غزوة تبوك، لا يعني غيابهم عنها، لاسيما وأن تعبئةً واسعة بين المسلمين سبقت هذه الغزوة، تجلّت في حضّ الرسول على «القتال والجهاد»[7]، على نحوٍ لم تشهده الغزوات السابقة. فمن المرجّح من هذا المنطلق أن الأنصار كانوا حاضرين بثقلهم[9] في هذه الغزوة التي أسفرت عن

(1) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 984.

(2) راجع ما أورده الطبري عن موقف الأنصار بعد بيعة أبي بكر في السقيفة: «قالت الأنصار أو بعض الأنصار لا نبايع إلاّ علياً». الطبري، ج 3، ص 198.

(3) ابن سعد، غزوات، ص 165.

(4) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 991.

(5) أي قرّ قراره.

(6) المصدر نفسه، ج 3، ص 1044.

(7) المصدر نفسه، ج 3، ص 990.

(9) يرى وات عكس ذلك، إذ بقي ـ حسب رأيه ـ كثير من الأنصار في بيوتهم، معتبراً أن هذا الموقف له خلفية اقتصادية. محمد في المدينة، ص 288.

اتفاقات بين الرسول وعدد من القبائل الشامية[1]، كـان لها نتـائجها الهـامة عـلى علاقة الأخيرة بالدولة الاسـلامية، فضـلاً عن انعكاسهـا بُعيد ذلـك على حـركة الفتوح في الشام التي رهصت بها غزوة تبوك قبيل سنوات قليلة.

(1) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 1031-1032.

الأنصار والخلافة

كانت تبوك آخر غزوات الرسول[1]، وإن لم تكن آخر الغزوات في عهده، حيث أشار الواقدي إلى سرية قام بها عليّ بن أبي طالب إلى اليمن[2]، ربما توّجت النشاط العسكري لدولة الرسول، وذلك في أعقاب سرية لخالد بن الوليد إلى نجران[3]. وقد خرج عليّ في ثلاثمائة فارس، «كانت خيلهم ـ حسب الواقدي ـ أول خيل دخلت تلك البلاد»[4]، فانتهى إلى أرض مذحج، حيث جرت موقعة أسفرت عن «تفرقهم وانهزامهم» وقتل عشرين منهم، قبل أن يستجيبوا لدعوته إلى الإسلام[5]. ولم تلمح هذه الرواية إلى أي دور للأنصار في السرية، وإن كان يُعتقد أن مادتها الغالبة من القبائل، انطلاقاً من الحيّز الذي اتخذه بنو سليم في القيادة، إذ دفع عليّ قبيل المعركة باللواء إلى مسعود بن سنان السلمي، بينما تصدّى آخر من القبيلة نفسها (الأسود بن الخزاعي السلمي) لرجل من مذحج دعاه إلى البراز، فقتله الأسود، ممهداً بذلك إلى انتصار المسلمين[6]، كما سبقت الإشارة.

ولعلّ إشكالية الأنصار في الدولة الإسلامية، كانت انعكاساً لإشكالية المدينة التي اتخذت شخصية جديدة بعد فتح مكة، وانخراط «أفواج» من قريش والقبائل العربية في الإسلام، مما جعل الأنصار قلة في مدينتهم وسط هذا التدفق البشري عليها من كل الجهات. وقد رأى «وات» Watt أن الأنصار، قد انكفأوا على ذاتهم أو بدأوا ذلك منذ غزوة تبوك، أي في الوقت الذي «هبّت فيه

(1) ابن سعد، غزوات، ص 167.
(2) رمضان سنة عشر للهجرة. الواقدي، ج 3، ص 1079.
(3) الطبري، ج 3، ص 156. راجع أيضاً ابن سعد، غزوات، ص 169.
(4) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 1079
(5) المصدر نفسه، ج 3، ص 1080.
(6) المكان نفسه.

الجزيرة بأسرها لمحالفة محمّد»[1] حسب تعبيره. ذلك أن بعضهم، أو من ساهم «وات» بالمزارعين[2]، وجد الفرصة سانحة للاستقرار وقطف ثمار نضاله في الإسلام، ولكن هذه النزعة «الذاتية» اصطدمت بالنظرة الشمولية للدولة، وما فرضته على المدينة من طابع احتوائي، هو في الحقيقة طابع المركز الذي يتساوى فيه الجميع من حيث المبدأ، المقيمون في الأصل والطارئون مع الموجة.

هذه الإشكالية المعقدة، ملخّصة بسقوط مكة من دون قريش وتراجع الأنصار من دون المدينة[3] التي أصبحت حاضرة العرب ومقرّ الدولة الإسلامية، قد حملت الأنصار على التوجّس من الوضع الجديد ومتابعة تلك التطورات بشيء من الحذر. فقد أدّى فتح مكة وتوحيد الجبهة القرشية بمعنى ما، إلى تفوق الأخيرة بزعامة المهاجرين، في الوقت الذي كانت فيه جبهة الأنصار مهدّدة بالانقسام أو مدفوعة بالتبعية للشركاء في الدولة. ومن هذا المنظور فإن مشكلة السلطة وما أحاط بها من هواجس، لم تطرح مصادفة في «السقيفة» أو بتأثير مباشر من مرض الرسول، وما يمكن أن يثيره ذلك من مخاوف جدية لدى الأنصار، وإنما كانت المشكلة مطروحة قبل سنوات ثلاث على الأقل، إبّان اعتراض قريش على حمل سعد بن عبادة راية «الفتح». وقد دفع ذلك الأخير إلى الرضوخ للأمر الواقع، الذي لم يكن واضح المعالم بالنسبة للأنصار، بقدر ما انطوى على ارتياب بموقف المهاجرين، ولكن دون أن يسوقه ذلك إلى التخلّي عن انضباطه أو التقاعس عن دوره الطليعي تحت راية الرسول.

وفي ضوء هذه المعطيات، فإن ثمة صلة وثيقة بين فتح مكة وبين «مؤتمر» السقيفة الذي دعا إليه سعد بن عبادة، حيث الأنصار «قد انحازوا إليه» فيما يرويه ابن إسحاق[4]. فقد ظلّت حادثة «الراية» يوم الفتح تثير في النفس شجونها والمخاوف، حتى إذا وجد أن الرياح مالت إلى المهاجرين وشيخهم أبي بكر، آثر سعد المنفى، وربما الموت بعد ذلك، على أن «يبايع قرشياً»[5] حسب

---

(1) وات، محمد في المدينة، ص 372.

(2) المكان نفسه.

(3) ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية، ص 118.

(4) ابن هشام، ج 4، ص 225.

(5) راجع روايات المدائني وأبي مخنف وابن الكلبي في، أنساب البلاذري، ج 1، ص 589.

الروايات التاريخية. بيد أن المسألة تأخذ بعدها السياسي (الاقليمي) قبل ذلك، إذ إن دعوة الأنصار إلى الاجتماع في السقيفة أي في مكان تابع لبني ساعدة عشيرة سعد[1]، تنطوي على موقف غير عفوي من جانب الأخير، في وقت كان المسجد، هو المكان التقليدي لمثل هذا الأمر. ولكن المسجد الذي كان بجوار منزل الرسول، حيث تحلّق كبار المهاجرين وقد شغلهم مرضه عن الأمور الأخرى، أعاق الأنصار عن الاجتماع في هذا المكان.

وهكذا انعقد «مؤتمر» السقيفة في ظل هاجس الخوف على مصير الأنصار بعد الرسول، لاسيما بعد توحيد الجبهة القرشية في العام الثامن، وما أسفر عنه ذلك من خلل في التوازن السياسي في المدينة. ولعلّ هذا الهاجس كان واضحاً في المداولات الأولى حول مسألة الخلافة، معبرّاً عنه بصورة خاصة، الحُباب بن المنذر (من بني سلمة من الخزرج)[2]، في سياق طرحه لاقتسام السلطة مداورة بين الطرفين وفق المقولة المعروفة: «منّا أمير ومنكم أمير، فإنّا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط، ولكنا نخاف أن يليه أقوام قتلنا آباءهم وإخوانهم»[3]، أي أولئك الذين قتلهم الأنصار في مواقع بدر وأُحد والخندق. وفي رواية ثانية يطرح الحُباب المسألة من منظور توازني: «منّا أمير ومنكم أمير، فإن عمل المهاجرون شيئاً في الأنصار، ردَّ عليه الأنصاري، وإن عمل الأنصار شيئاً في المهاجرين ردَّ عليه المهاجري»[4]. وفي رواية ثالثة، يصف الحُباب قومه بأنهم «كتيبة الإسلام»[5] في معرض طرحه للمقولة نفسها: «فذلك أحرى ألاّ يخالف أحد منّا صاحبه»[6]، وفي رواية رابعة يبدو الحُباب أكثر تطرفاً في دعوته إلى أن يؤول الأمر للأنصار: «ملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم ولن يجترىء مجترىء على خلافكم»[7]. ولكنه لا يمضي بعيداً في التطرف،

(1) ابن هشام، ج 2، ص 78.
(2) البلاذري، أنساب، ج 1، ص 584.
(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 580.
(4) البلاذري، أنساب، ج 1، ص 581-582.
(5) المصدر نفسه، ج 1، ص 583.
(6) المصدر نفسه، ج 1، ص 584.
(7) الطبري، ج 3، ص 209.

وسرعان ما يعود إلى طرحه المتوازن السالف الذكر.

على أن الأنصار، لم يجمعهم موقف واحد في السقيفة، وإنما سادت بينهم عدة اتجاهات متفاوتة، ما بين التشدّد والاعتدال، وربما التحزّب للمهاجرين. ولعلّ سعد بن عبادة كان يمثّل الاتجاه المتصلّب في الأنصار، الذي عبّر عنه الحباب في جانب من الرواية الأخيرة، رافضاً فكرة المساومة التي ترددت في الجانب الآخر من الرواية. والاتجاه الثاني مثّله الحُباب بن المنذر الذي تحزّب لمرشحه الخزرجي (سعد)، ولكن مع شيء من الاعتدال يتوخّى الوصول من خلاله إلى صيغة متوازنة بين الطرفين «الشريكين» في الإسلام: «نحن كتيبة الإسلام وأنتم معشر قريش رهط بيننا» حسب القول المنسوب له في رواية الزهري[1]. أما الإتجاه الثالث الذي اتّسم بالواقعية، فقد عبّر عنه عويم بن ساعدة (الأوس)[2] ومعن بن عديّ (الخزرج)[3] اللذان تعاطفا مع المهاجرين وأدركا على ما يبدو صعوبة أن تؤول الخلافة إلى الأنصار، فكانا أول من أحاط المهاجرين (أبو بكر) بما كان يجري في السقيفة، ووصفاه بأنه «باب فتنة»[4] حسب رواية الزهري. وكان عويم فيها تشير إحدى الروايات أول المبايعين من الأنصار، وإن كان السائد أن بشيراً بن سعد (من الخزرج)، تقدّم قومه في بيعة أبي بكر وإظهار فضل المهاجرين في هذا المجال[5].

وثمة اتجاه رابع يشوبه الإبهام، وهو المؤيد لعلي بن أبي طالب الذي كان أكثر المهاجرين قبولاً لدى الأنصار، إذا ما توقّفنا عند مروية الطبري: «قالت الأنصار أو بعض الأنصار لا نبايع إلاّ علياً»[6]، وذلك بعيد بيعة عمر وأبي عبيد لأبي

---

(1) البلاذري، أنساب، ج 3، ص 583.

(2) ورد عاصم عند أبي مخنف. الطبري، ج 3، ص 208.

(3) بنو العجلان الذي يتمي إليهم معن، بطن من الخزرج. ابن هشام، ج 2، ص 247. على أن معن ورد في مكان آخر من المصدر نفسه بأنه من بلي حلفاء الأوس. ج 2، ص 240.

(4) الزهري، المغازي النبوية، ص 143. الطبري، ج 3، ص 200. البلاذري، أنساب، ج 1، ص 581.

(5) البلاذري، أنساب، ج 1، ص 582. الطبري، ج 3، ص 209.

(6) الطبري، ج 3، ص 198.

بكر. وكان المنذر بن أرقم[1]، في مروية لليعقوبي على رأس هذا الاتجاه، حيث نسب له القول في معرض الردّ على قول عبد الرحمن بن عوف للأنصار «إن كنتم على فضل، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي»[2] «إن فيهم لرجلاً - يقصد علي - لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد»[3]. ويبدو أن مشروع البيعة لعليّ، وجد قبولاً لدى الأنصار، لاسيما بعد إخفاق مرشحهم، وغلبة اتجاه البيعة للمهاجرين، فقد أشار اليعقوبي أيضاً إلى «قوم من المهاجرين والأنصار مالوا إلى علي»[4] وتخلفوا عن بيعة أبي بكر، كان بينهم البراء بن عازب وأبيّ بن كعب (من الأنصار) والعباس بن عبد المطلب والزبير بن العوّام (من قريش)، فضلاً عن مهاجرين آخرين مثل سلمان الفارسي وأبي ذرّ الغفاري وعمّار بن ياسر، «اجتمعوا مع علي» وامتنعوا عن بيعة الخليفة الأول[5]. ولعلّ موقف الأنصار من علي، تبلور بعد بيعة أبي بكر، إذ كان انحيازهم إليه - فيما يرى Vezely - معبّراً عن الحرمان المشترك (من السلطة) الذي أوجد أساساً للتحالف معه[6]، تجلّى بصورة واضحة في عهده.

كانت تلك اتجاهات الأنصار الظاهرة في «السقيفة»، وهي تعبّر أساساً عن الإنقسام في الموقف السياسي، الذي لم يقتصر على الأوس والخزرج، - ممثلاً يقول أسيد بن حضير لجماعته الأوس: «لئن وليتها الخزرج عليكم مرةً لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معها نصيباً أبداً»[7] - وإنما عصف بالقبيلة نفسها، وربما العشيرة نفسها، ممثلاً بموقف بشير بن سعد، أول المنشقّين في جبهة الأنصار[8]، مما أحدث ارتباكاً في صفوفها شجّع الأوس على الخروج

---

(1) ورد عند اليعقوبي فقط، بينما تردّد ذكر المنذر بن عمرو من بني ساعدة (الخزرج) في الروايات الأخرى.

(2) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 123.

(3) المكان نفسه.

(4) المكان نفسه.

(5) المكان نفسه.

(6) Vezely, *Al-Ansar*, p. 35.

(7) الطبري، ج 3، ص 209.

(8) المكان نفسه.

منها والانحياز إلى المهاجرين. وما لبث هؤلاء أن سيطروا على الموقف في ظلّ شعارهم «الأئمة من قريش»[1]، الذي كرّس مبدأً سارت عليه الخلافة عهوداً طويلة، وانفضّ جمع الأنصار، دون أن يكون للتسوية التي طرحها أبو بكر في السقيفة «نحن الأمراء وأنتم الوزراء»[2]، أي نصيب من التنفيذ، فقد تولى المهاجرون السلطة الفعلية، في الوقت الذي ابتعد كثيراً عنها الأنصار، باستثناء مشاركة ما كانت لهم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي قرّب إليه جماعة منهم على حساب قريش[3]، ومشاركة أكثر فعلية في عهد عليّ الذي اعتمد عليهم في إدارته وحروبه[4].

وهكذا فإن الشعور بالخوف لدى الأنصار، أيقظ فيهم العصبية الاقليمية التي طالما راودت عبد الله بن أبيّ وأصحابه «المنافقين»، ولم تعدم تأثيراً لدى شخصية حازت ثقة الرسول وكانت قريبة منه، مثل الحُباب بن المنذر، الذي حرّض الأنصار على انتزاع السلطة بالقوة، وخاطبهم ـ حسب رواية أبي مخنف ـ بقوله: «فإن أبوا عليكم (المهاجرون) فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين ما دان ممن لم يكن يدين، أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجّب، أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة»[5]. وإذا كان الحُباب قد نحا بعد ذلك إلى الاعتدال في هذه المسألة، فإن سعد بن عبادة، لم تخمد فيه هذه النزعة، وأبى أن يكون لأهل مكة هذا الأمر سواء المهاجرين أم غير المهاجرين، حيث كان الجميع برأيه من قريش التي رفض أن يبايع لأحد منها، كما سبقت الإشارة[6]، وذلك خلافاً للحُباب الذي

---

(1) البلاذري، أنساب، ج 1، ص 584.

(2) المكان نفسه.

(3) Vezely, *Al-Ansar*, p. 40.

(4) خليفة بن خياط، ج 1، ص 230. الطبري، ج 6، ص 7, 9. ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص 242-254. الكلابي البصري، وقعة الجمل، ص 31-33. نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، ص 372، البلاذري، أنساب، ص 381 (تحقيق المحمودي).

(5) الطبري، ج 3، ص 209.

(6) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 197. البياسي، الاعلام بالحروب الواقعة في الاسلام. مخطوطة. (دار الكتب المصرية) ورقة 20.

تراجع عن موقفه وانخرط في بيعة الجماعة التي خرج بمفرده منها سعد، ملتجئاً إلى الشام (حوران)، حيث قتل في عهد الخليفة عمر نتيجة لهذا الموقف المتشدّد.

وبعد سقوط الدولة الراشدية وقيام دولة الأمويين، لم يخف معاوية بن أبي سفيان شعوره غير الودّي نحو الأنصار، وهو موقف لا ينفصل في النتيجة عن العلاقة التقليدية بين هؤلاء وقريش، مما يفسِّر عبر هذا المنظور، إرسال معاوية قائد قرشي لإخضاع الحجاز في أواخر عهد الخليفة عليّ، وهو بسر بن أرطأة (من بني عامر بن لؤي)، متفاوتة أوامره للأخير ما بين الشدة نحو حاضرة الإسلام الأولى: «سر حتى تمرّ بالمدينة فاطرد أهلها واخف من مررت به وانهب مال كل من أصبتَ له مالاً ممن لم يكن قد دخل في طاعتنا، وأوهم أهل المدينة أنك تريد أنفسهم، وأنه لا براءة لهم عندك وعذر»[1]، وما بين الليونة نحو حاضرة قريش: «وسر حتى تدخل مكة ولا تعرض فيها لأحد...»[2]. ولم تختلف الرواية التي أوردها البلاذري عن الرواية السابقة (اليعقوبي) في هذا السياق، إذ يوصي معاوية قائده بقوله: «فمر بالمدينة فأخف أهلها وهوّل عليهم.. ثم كف عنهم وسر إلى مكة فلا تعرض فيها لأحد»[3]. وفي رواية ثالثة ذكر الطبري أن بسر بن أرطأة سار في جيش من الشام حتى قدم المدينة، ففرّ عاملها أبو أيوب الأنصاري، «فنادى على المنبر يا دينار ويا نجار ويا زريق (من بطون الأنصار) شيخي شيخي (عثمان) عهدي به الأمس فأين هو؟». ثم قال: «يا أهل المدينة والله لولا ما عهد إليّ معاوية ما تركت بها محتلماً إلاّ وقتلته»[1]. فقد كانت ثمة تعبئة ضد الأنصار، رافقت انتقال الخلافة إلى الأمويين الذين اقتصرت علاقتهم بهؤلاء على أربعة منهم فقط وهم: النعمان بن بشير (والي حمص) ومسلمة بن مخلد (والي مصر) وعمرو بن سعيد (والي فلسطين) وفضالة بن عبيد (القضاء)[2]، بينما الأكثرية منهم تراجعت إلى المدينة منكفئة على

---

(1) البلاذري، أنساب، ص 453-454 (ت المحمودي) المكان نفسه.
(2) الطبري، ج 6، ص 80.
(3) البلاذري، أنساب، ص 160 (ت المحمودي).

عزلة شديدة، حيث عبر عن موقفها، قيس بن سعد بن عبادة، أبرز شخصيات الأنصار في تلك المرحلة وأبرز قياداتهم في عهد عليّ، وذلك بما نُسب إليه من قول في معرض السجال مع النعمان بن بشير بعد دعوة الأخير له إلى بيعة معاوية: «فلو اجتمعت العرب على بيعته لقاتلتهم الأنصار»[1].

وهكذا، كانت العلاقة بين معاوية والأنصار، متأثرة بذلك التراكم الذي شابها، ابتداءً من الهجرة ووقعة بدر، ومروراً بيوم الدار (مقتل عثمان) وأيام صفين، حتى سقوط الدولة الراشدية، التي كان آخر المقاتلين عنها، قيس بن سعد مجسّداً ذلك في مقولته المعروفة إلى جنوده: «اختاروا الدخول في طاعة إمام ظلالة أو القتال بغير إمام»[2]، وانتهاءً بوقعة «الحرّة» التي وصفها Vezely بأنها ذروة العداء بين الأنصار وبني أمية[3]. وثمة شواهد كثيرة على هذا الصراع القرشي - الأنصاري الذي بلغ حده الأقصى في عهدي معاوية ويزيد، من غير أن يكون له طابعه السياسي فقط، ولكنه اتخذ بُعده الاجتماعي الواضح في تلك المرحلة، التي عانى الأنصار شدتها وضغطها الاقتصادي، على نحو ما عبّر عنه ابنٌ لقيس بن سعد، عاتبه معاوية على تلكّؤ الأنصار في الترحيب به عن بُعد وهو في طريقه لإقامة الحج، فأجابه الأول - حسب رواية المدائني - بقوله: «منعنا من ذلك قلة الظهر وخفة ذات اليد، بإلحاح الزمان علينا وإيثارك بمعروفك غيرنا»[4].

ولكن الأنصار على ما يبدو لم يتحسّن وضعهم الاقتصادي في عهد معاوية، برغم توسّط حليفه النعمان بن بشير، الذي دخل عليه «في جماعة من الأنصار فشكوا إليه فقرهم. . فحرمهم ولم يعطهم شيئاً»[5]، حسب الرواية التاريخية. وثمة صورة أخرى لمعاناة الأنصار في العهد السفياني، عبّر عنها يزيد بن معاوية بصورة غير مباشرة، وذلك في معرض الردّ على عبد الله بن جعفر، الذي دخل

(1) الإمامة والسياسة، ج 1، ص 1031.
(2) الطبري، ج 6، ص 92.
(3) Vezely, *Al-Ansar*, p. 45.
(4) البلاذري، أنساب، ج 4، ص 116.
(5) البلاذري، أنساب، ج 4، ص 116. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 6، ص 32.

عليه متوسطاً بينه وبين أهل المدينة، حيث كانت أجواء الثورة مسيطرة على الأخيرة. فقد نُسب ليزيد قوله لإبن جعفر: «فإن أقرّوا الطاعة ونزعوا من غيّهم وضلالهم، فلهم عليّ عهد الله وميثاقه أنّ لهم عطاءين في كل عام.. عطاء في الصيف وعطاء في الشتاء، ولهم عليّ عهد أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا سبع آصع والعطاء الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو عليّ أن أخرجه لهم وافراً كاملاً..»[1]. فالمعارضة الأنصارية تأخذ إذن بُعدها الاجتماعي الواضح وهو ما اعترف به الخليفة إزاء التململ الذي ساد المدينة بشكل عام والأنصار بشكل خاص في ذلك الوقت[2]. فلم يعد هؤلاء معنيين كثيراً بالمسألة السياسية التي شغلت أبناء الصحابة في الحجاز، وإن لم يكونوا بعيدين عن التفاعل معها، وإنما كانت المسألة الاجتماعية شاغل الأنصار في تلك المرحلة التي أعقبت وفاة مؤسس الدولة الأموية. فإذا كانت هذه المناسبة، مقترنة بالنسبة للبعض بإعادة طرح مشكلة الخلافة، فإنها اقترنت لدى الأنصار بمشكلة الأرض في المدينة واستعادة ما فقدوه منها في ظروف غير عادية، وهي التي تندرج فيما عُرف بمشكلة «الصوافي»[3] التي انفجرت بُعيد وفاة معاوية.

وفي ضوء هذه المعطيات، فإن ثورة المدينة التي ارتبطت بالتحرك العام للمعارضة السياسية ضد الخليفة يزيد بن معاوية، لم تكن بعيدة في دوافعها الأساسية عن معاناة الأنصار وسوء أوضاعهم الاقتصادية، دون أن تكون هذه الحركة مصادفة أو خارج التوقيت، وإنما تمّت في ظلّ خطة، كان الجميع معنيين بها، مشاركين في تنفيذها. فقد جاء في «الإمامة والسياسة» أن عامل صوافي معاوية ويدعى ابن مينا[4]، قدم إلى المدينة «يريد الأموال التي كانت لمعاوية،

---

(1) الإمامة والسياسة، ج 1، ص 189.

(2) كان بعض القرشيين قد ساند الأنصار في حركة الصوافي. المصدر نفسه، ج 1، ص 188.

(3) عرّف السمهودي الصوافي بأنها جمع صافية ومعناها النخلة الكبيرة الحمل. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ج 1، ص 127.

راجع عن ثورة المدينة: M.J. Kister, *Studies in Jahiliyya and erly Islam* (The Battele of the Harra) p. 39.

(4) راجع أيضاً: اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 250. الكتّاني، التراتيب الادارية، ج 2، ص 50.

فمُنع منها وأزاحه أهل المدينة عنها وكانت أموالاً اكتسبها معاوية ونخيلاً يجد منها مائة ألف وستين ألفاً. ودخل نفر من قريش والأنصار على عثمان[1]، فكلّموه فيها، فقالوا: قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا وأن معاوية آثر علينا في عطائنا ولم يعطنا قط درهماً فما فوقه حتى مضّنا الزمان ونالتنا المجاعة فاشتراها بجزء من مئة من ثمنها»[2]. وقد روى اليعقوبي هذه الحادثة بشيء من الاختصار، فقال «إن يزيد ولّى عثمان بن محمد بن أبي سفيان المدينة، فأتاه ابن مينا عامل صوافي معاوية، فأعلمه أنه أراد حمل ما كان يحمله في كل سنة من تلك الصوافي من الحنطة والتمر، وأن أهل المدينة منعوه من ذلك»[3]. ولعلّ السمهودي (من مؤرخي القرن التاسع الهجري) كان أكثر مباشرة في الربط بين الثورة ومشكلة الأرض، عندما ذكر في رواية عن الواقدي أن «أول ما أهاج أهل الحرة أن ابن مينا أقبل بشرج[4] له من الحرّة يريد الأموال التي كانت لمعاوية فلم يزل يسوقه ولا يصدّه عنه أحد حتى انتهى إلى بلحارث بن الخزرج، فنقب النقيب فيهم، فقالوا ليس ذلك لك، هذا حدث وضرر علينا، فاعلم الأمير عثمان بن محمد بذلك»[5].

وقد اتخذت هذه الحركة طابع الانتفاضة في بادىء الأمر، حيث قام بنو الحارث بن الخزرج ومن ساندهم من الأنصار وقريش، بالوثوب على بني أمية في المدينة «واتبعوهم يرجمونهم بالحجارة»[6] فيما يرويه اليعقوبي.. وسرعان ما تطورت إلى ثورة شاملة، متأثرةً بدون شك بالمناخ السياسي العام (ثورة الحسين وحركة عبد الله بن الزبير)، فضلاً عن العلاقة المتشنّجة في الأساس بين الأمويين والأنصار. ولعلّ هذه الصورة كانت واضحة في ردّة الفعل السريعة، سواء لدى الخليفة الذي هدّد أهل المدينة بما نُسب إليه قائلاً: «لأطأنهم وطأة آتي منها على

(1) عثمان بن محمد بن أبي سفيان والي المدينة.
(2) الإمامة والسياسة، ج 1، ص 188.
(3) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 250.
(4) جمع أشراج أو شرج وهي سبل الماء من الحرّة إلى السهل. لسان العرب، ج 2، ص 307.
(5) وفاء الوفا، ج 1، ص 127.
(6) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 250.

أنفسهم»[1]، أو لدى عامل الصوافي الذي بدا «متطاولاً عليهم»[2]، فضلاً عن والي المدينة الذي هدّد أهلها بأن يكتب بسوء رأيهم إلى أمير المؤمنين وما هم عليه من «كمون الأضغان القديمة والأحقاد»[3]. . إنها الأحقاد، ربما المتبادلة إذن، تتخذ حيّزها في العلاقة المتوترة بين الأنصار وبني أمية، تلك التي تردّد صداها في أقوال الشعراء في تلك المرحلة، مثل شاعر الأمويين الأخطل الذي ماشى هؤلاء في الخصومة للأنصار في قوله المعروف:

ذهبت قريشٌ بالمكارم والعلى   واللؤم تحت عمائم الأنصار[4]

كما عرّض في قول آخر من القصيدة نفسها، بعلاقة الأنصار القديمة مع اليهود ومحتقراً اشتغالهم بالزراعة:

لعن الإله من اليهود عصابةً   بالجزع بين صُليصل وصرار[5]
. . خلّوا المكارم لستُم من أهلها   وخذوا مساحيكم[6] بني النجار
إن الفوارس يعلمون ظهوركم   أولاد كل مقبّح أكّار[7]

وقد أثار ذلك حفيظة النعمان بن بشير، الذي استيقظت فيه عصبيته «الأنصارية»، ملمحاً بصورة غير مباشرة إلى موقف الأمويين من الإسلام الذي نصره قومه بينما قاتلته قريش، حيث يقول مخاطباً معاوية:

متى تلقى منّا عصبة خزرجية   أو الأوس يوماً تخترمك المخارم
ألم تبتدر يوم بدر سيوفنا   وليلك عمّا ناب قومك نائم[8]

كما انعكس هذا التوتر على شاعر آخر كان أبوه من رؤوس «الحزب

---

(1) الإمامة والسياسة، ج 1، ص 189.
(2) السمهودي، وفاء الوفا، ج 1، ص 128.
(3) الإمامة والسياسة، ج 1، ص 188.
(4) أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ص 377.
(5) مكانان بجوار المدينة.
(6) جمع مسحاة وهي الفأس (من أدوات الزراعة).
(7) أحمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، ص 152.
(8) الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ص 95.

العثماني»، هو عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الذي لم يخفِ سخطه على معاوية في موقف للأخير نال فيه من الأنصار ومن شيخهم أبي قتادة، إذ قال مخاطباً الخليفة الأموي:

فإنّا صابرون ومنظروكم إلى يوم التغابن والخصام[1]

وهكذا كانت ثورة المدينة وما انتهت إليه من مأساة عظيمة في موقعة الحرّة، ذروة هذا التراكم السياسي والاجتماعي الذي فجّرته مشكلة الأرض، وتطوّر إلى مواجهة عسكرية، اتخذ الأنصار دوراً أساسياً فيها، كقيادة أو كمادة مقاتلة. وفي ضوء هذا الواقع، تنازل عبد الله بن مطيع العدوي (من قريش) ـ وهو موال لابن الزبير ـ عن القيادة لعبد الله بن حنظلة (الأنصاري)[2]، مكرّساً ذلك سيطرتهم لأول مرة على المدينة في ظلّ الإسلام، بعد أن أخفقوا في الوصول إلى هذا الموقع قبل نصف قرن في السقيفة[3]. ولكن هذه الثورة، برغم الإجماع على تأييدها في المدينة وطرد الأمويين من الأخيرة، لم يكن لها من مقومات الصمود، سواء العسكري منها أم الاقتصادي، ما يجعلها تحقق نجاحات تتجاوز هذا الحدّ، في وقتٍ كان الخليفة (يزيد) قد مضى شوطاً في مواجهته العنيفة للمعارضة التي تجلّت في مقتل الحسين وأصحابه، من غير أن يحول ذلك ومتابعة هذا النهج، مما أوقع المدينة في دائرة العنف قتلاً واستباحةً وغير ذلك من ممارسة انتقامية، استهدفت الأنصار بشكل خاص[4].

وقد لا تخفي الروايات بعض المبالغة في وصفها لنكبة المدينة التي جرت بُعيد معركة قصيرة في الحرّة. ولكن هذه الحركة من منظور سياسي، عكست أزمة السلطة الأموية التي أخفقت في التعبير عن مصالح الجماعة، وما يقترن بالأخيرة من طابع شرعي، لم تستطع وحدة القبائل أن تكون بديلاً لها، مما أوجد هوّة كبيرة بين الدولة والجماعة، حيث كان الأنصار في الواقع نخبتها وصورتها

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 202.
(2) روى الطبري أن الأنصار كانوا «أعظمها وأكثرها عدداً»، ج 7، ص 8.
(3) ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية، ص 276،
(4) خليفة بن خياط، ج 1، ص 292-302.

الساطعة. ولذلك فإن ضربة المدينة كانت ضربة قاسية للجماعة نفسها، التي تراجع دورها كقوة سياسية أو معنوية على الأقل، مع فشل ثورة المدينة التي كانت آخر محاولة فعلية للجماعة، لاستعادة دورها الطليعي في الدولة، كما كانت آخر فرصة للأنصار من أجل تحقيق طموحهم في السلطة، إذ إن المحنة العظيمة التي نزلت بهم في «الحرّة»، دفعتهم إلى العزلة التامة وانتهت بهم إلى زوال دورهم السياسي بصورة نهائية.

الباب الثاني

الأنصار والانقسام القبلي

(حركة النفاق)

حركة النفاق

«النفاق» لغة ترادف مع الرياء، أو «إظهار غير ما في الباطن»[1] كما جاء في لسان العرب، ولكن مدلول هذه الكلمة في الإسلام، يرتبط بتلك الفئة التي خرجت على الجماعة، وكادت تؤدي إلى شقّ وحدتها، مما جعلها وفقاً للسياق القرآني، تُصنّف بين الحركات المناوئة للإسلام، والمتآمرة على دولته في المدينة. ولا يختلف النصّ التاريخي في تقويمه لهذه الحركة التي حاولت طرح نفسها كـ «قوة ثالثة»[2] في الصراع الإسلامي - اليهودي، وإبراز خطورتها على أمن الجماعة ووحدتها، وفتح ثغرة في الجبهة الداخلية المعقّدة.

هذه هي الصورة العامة لحركة النفاق، من خلال مدلولها الإسلامي، بحيث لا تدع النصوص مجالاً للشك في تصنيفها في الموقع المعادي للإسلام، ذلك التصنيف الذي بنت عليه أطروحتها أيضاً، الدراسات الحديثة، متخذةً المنحى نفسه إلى حدٍّ كبير في النظرة إلى هذه الحركة. بيد أن ذلك لا يحول دون إثارة بعض النقاط الملتبسة، لاسيما المتعلقة بموقع «رئيسها» عبد الله بن أبيّ بن سلول (من الخزرج) في الإسلام وعلاقته بالرسول، وإذا كان كلاهما ينسحب على موقع الحركة بصورة عامة، وبالتالي إذا كان الموقف السياسي منفصلاً عن الموقف

(1) لسان العرب، ج 10، ص 359.
(2) ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية، ص 109.

الديني لدى الأخيرة، أو أنه كان نتيجة له، بحيث يصبح «النفاق» هنا شكلاً من أشكال الردّة، أو لعلّه متجاوز ذلك إلى مرحلة ما قبل الإسلام، فيندرج المنافقون في الجبهة نفسها التي تضم المعارضين من أهل الشرك.

والواقع أن النصّ القرآني يجعل النفاق مقترناً بالردّة، من خلال الآية الكريمة ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾[1]. وتتعرض سورة «المنافقون» لموقف عبد الله بن أبيّ في غزوة بني المصطلق، حيث العناصر البارزة للنفاق تتجسّد في «الكذب»[2] واتخاذ «الإيمان»[3] تمويهاً للموقف الباطني[4] والارتداد عن الإسلام، محذّرة «آياتها» بأن المنافقين هم الأعداء[5] والفاسقون[6]. ولكن الخطاب القرآني في الجزء الثاني من السورة يتخذ اتجاهاً احتوائياً مع المنافقين الذين خانتهم المعرفة وسيطر عليهم الجهل[7] وأخذتهم بهارج الدنيا، فإذا هم الخاسرون[8]. كما خذلتهم أمنياتهم بأن يكونوا من الصالحين، قبل أن يمهلهم الموت «إلى أجل قريب»[9].

ولعلّ هذا التدرّج في سياق السورة من القطع إلى الاحتواء، تقاربه الإشكالية التاريخية في العلاقة مع عبد الله بن أُبيّ، الذي لم يكن مرفوضاً بصورة كاملة، وإن كان مُحاطاً وأصحابه بالريبة والحذر من جانب المسلمين. ومن هذا المنظور، قد تكون دوافع حركته سياسية أكثر مما هي دينية، وبالتالي يمكن تقييم موقفه من هذا المنطلق، بأنه موقف سياسي ربما وجد تسويغاً لدى الرسول الذي لم يشأ مجاراة بعض المسلمين في حسم هذه المسألة. فقد استأذنه عمر بن الخطاب ـ حسب رواية الواقدي ـ في قتل المشكّكين من يهود ومنافقين، فكان

(1) سورة: المنافقون، الآية 3.
(2) . . . والله يشهد أن المنافقين لكاذبون.
(3) اتخذوا إيمانهم جنة.
(4) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 8، ص 107.
(5) الآية ـ 48.
(6) الآية ـ 6.
(7) الآية ـ 3، 8، 81.
(8) الآية ـ 9.
(9) الآية ـ 10.

جـواب الرسـول: «لليهـود ذمـة فـلا أقتلهم»[1]، وعن المنـافقـين قـال: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله»؟... «نهيتُ عن قتل»[2] من قـال ذلك، معبّـراً في هذا السيـاق عن سياسـة واقعيـة، ليس في هـذه المسـألـة الـداخلية، التي تمسّ وحـدة الجماعـة في المدينـة، ولكن في مختلف المسـائل التي واجهتـه في تلك المرحلة، وذلـك تفادياً لنشوب صراعـات ذات طابـع قبـلي أو إقليمي في الجبهة الإسلامية، تجعل قريشاً المستفيدة الرئيسة منها، وهو ما تنبّه له الرسول في ردّه على عمر: «إن قريشاً لن ينالوا منّا مثل هذا اليوم...»[3].

وقـد يسهم البحث في جذور المـوقف الذي اتخـذه عبد الله بن أبيّ وأصحـابه عشية موقعة أُحد، في إلقاء الضوء على هذه المسألة، لاسيـما وأن الخزرج ـ قبيلة الأخـير ـ قامـوا بدور أسـاسي في التمهيد للهجـرة ونشوء الـدولة الإسـلاميـة في المدينة، في وقتٍ كانت تعاني هذه القبيلة خطراً على كيانها الاجتـماعي في أعقاب «يـوم بعاث» ـ آخـر الحروب القبليـة قبـل الإسـلام ـ الـذي انتهى إلى انتصـار الأوس على الخزرج وإحـراق دورهـم ونخيلهم[4]. ولم يشترك عبـد الله بن أُبي في هـذا الصراع الذي كـان من نتائجـه مقتل «رئيس» الخـزرج عمـرو بن النعـمان البياضي، مما جعله يـطمح إلى رئـاسة قبيلتـه بعد الحـرب. ولكن ما حـدث من لقاء بين الرسول وجماعة من الخزرج في العقبة، دفع بالصراع العربي ـ العربي في المدينة نحو منعطف جديد، وأدّى إلى انخـراط القبيلتين في جبهـة واحدة تحمـل اسم الأنصار. وإذا كان من بين دوافع الخزرج إلى التحالف مع الرسول في ظلّ الإسـلام، ما ينـدرج في هـذا الصراع القبـلي ومـواجهـة تحـالف الأوس وبعض اليهود (بنو قريظة والنضير)[5]، فإن انضمام خصوم الخزرج التقليديين إلى الجبهة الجديدة، كان له تأثير إيجـابي في انحسار أجـواء الصراع في المدينـة، لاسيما وأن

---

(1) الواقدي، المغازي، ج 1، ص 318.

(2) المكان نفسـه. يتعارض مع ذلك ما ذهب إليه صديقنـا المستشرق الأمريكي دونـر Donner في تأكيده على قضية ابن أبيّ وأصحـابه.
Muhammadas Political Consolidation In Arabia UP to the Conquest of Mecca, p. 231.

(3) المكان نفسه.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 1، ص 681.

(5) المصدر نفسه، ج 1، ص 680.

المشاركين في بيعتي العقبة، سواء من الخزرج أو الأوس، لم يتورطوا على الأرجح بصورة مباشرة في الحرب الأخيرة.

وفي ضوء هذه التطورات وما رافقها من تغيّر في مفهوم الرئاسة، والخروج من الطابع الفردي والانخراط في صفوف الجماعة، كانت «رئاسة» عبدالله بن أبيّ تفتقد بريقها، فضلاً عن مسوغاتها الموضوعية. ولذلك يغيب اسمه عن تلك الأحداث، ولا يكون بين النقباء الاثني عشر، الذين كان بينهم تسعة من الخزرج[1]، تقدموا جميعهم إلى الصدارة، بينما تراجع ابن أُبيّ تحت تأثير هواجسه القديمة، وما كان ينزع إليه من دور لم يتحقق بعيد «يوم بعاث» حسب الرواية التاريخية[2]. فقد أنهكت الحرب على ما يبدو القبيلتين العربيتين في المدينة، وأودت برئيسيهما في ساحة المعركة، عمرو بن النعمان الخزرجي وحضير بن سماك الأوسي[3]، بينما عبد الله بن أُبيّ يراقب عن كثب التطورات ويبتهج لمقتل الأول[4]، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ودبّ الوهن في أوصال الطرفين، دون أن يؤدي انتصار الأوس إلى تغيير هذا الواقع، أخذت الأنظار تتوجّه إلى الرجل «الحكيم» الذي لم يجرفه سُعار الحرب ولم تسيطر عليه العصبية الجامحة. وهكذا تعزّز موقع عبد الله بن أُبيّ، وأوشك أن يقطف ثمار موقفه المعتدل وأن يحقق طموحه السياسي، الذي ربما تجاوز آفاق القبيلة الخزرجية، إلى أن تكون له الكلمة العليا بين العرب في المدينة. فقد روى ابن اسحاق أن الرسول قدم المدينة «وسيد أهلها عبد الله بن أُبيّ بن سلول. . لا يختلف في شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين، حتى جاء الإسلام غيره»[5]. وتتابع الرواية في هذا السياق، فتنتهي إلى القول «بأن الأمر وصل بعبد الله في المدينة، إلى درجة دفعت قومه لأن ينظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملّكوه عليهم»[6]. ولعلّ عبارة «القوم» هنا لا تقتصر على قبيلته

(1) ابن هشام، ج 2، ص 65.
(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 166.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج 1، ص 681.
(4) رُوي أنه قال بعد أن بلغه مقتل عمرو بن النعمان «ذق وبال البغي». المكان نفسه.
(5) ابن هشام، ج 2، ص 166.
(6) المكان نفسه.

فقط، وإنما تشمل القبيلتين اللتين يفترض أنهما أجمعتا على رئاسته، للخروج من دائرة الحرب، استناداً إلى هذه الرواية.

وهكذا كان ابن أُبيّ على أبواب السلطة، التي عادت فأوصدت أبوابها دونه، بعد التحوّل الذي طرأ على المدينة (يثرب) وأدّى إلى ارتباطها بالإسلام، وانخراط القبيلتين في الجماعة التي تشكّلت من المهاجرين والأنصار. وقد حمله ذلك على مقابلة الوضع الجديد بالفتور، انطلاقاً من شعوره بأن الرسول «قد استلبه ملكاً»[1]، كان يرنو إليه وكاد يحقق بغيته فيه. ولكن هذا الموقف لم يجنح به عن اعتداله، أو التصدي للواقع الذي أفلت من يديه، وإنما آثر ركوب الموجة بعدما «رأى قومه قد أبوا إلاّ الإسلام.. فدخل فيه كارهاً»[2] ومنطوياً على «نفاق وضغن»[3]. وكان ذلك خطأً كبير أوقع نفسه فيه ابن أُبيّ، الذي أخفق في تقدير حجم المتغيرات ومؤثراتها الجذرية في المدينة، مكتفياً منها بالوقوف في وسط الطريق، متقدماً أو متأخراً حيث تدعو الحاجة أو تملي عليه مصالحه الذاتية. ويبدو أن هذا الموقف، كان يجد له تسويغاً لدى المسلمين أو بعضهم في المدينة، مثل «قريبه» سعد بن عبادة الذي أوصى الرسول «الرفق به» ومراعاة دوافعه التي كانت تحمله على تحدّي المسلمين وإثارة مشاعرهم[4]. ولم تكن ثمة صعوبة في استيعاب موقف «المنافقين» في المدينة، برغم ما شكّله هؤلاء من خطر على أمنها الداخلي والخارجي معاً، حيث كانت السلطة محسومة في يد الرسول، والمسلمون قابضون على زمام الوضع السياسي فيها. ولا يقلّل من أهمية هذا الواقع، ما قيل عن انضمام «ثلث الناس إلى عبد الله بن أُبيّ في الشوط»[5]، وهي نسبة ـ إن صحّ تقديرها ـ ربما شكّلت خطورة جدية على الدولة، لو كانت لهذه الفئة أفكارٌ ما حول السلطة والعقيدة، ولكن هؤلاء سرعان ما انكفأوا على أنفسهم في المدينة، في انتظار النتائج السلبية التي تمنّوها

(1) المكان نفسه.
(2) المكان نفسه.
(3) ابن هشام، ج 2، ص 166.
(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 168.
(5) مكان بين المدينة وأحد. المصدر نفسه، ج 3، ص 17.

للمسلمين في «أُحد»، وتلقوها بابتهاج بعد ذلك[1].

ولعلّ المقارنة مطروحة بصورة ما بين موقف ابن أُبيّ في غزوة أُحد، وبين ذلك الذي اتخذه في يوم بعاث، حيث كان له رأي خاص في كل منهما، مع الفارق في المعطيات بين هذه وتلك، متوخياً في النتيجة ما يراود نفسه من موقع كان يطمح إليه، في ظلّ التناقضات المحيطة به. ولكن الخلل في مشروعه، هو أن نظرية الاعتدال التي أوصلته إلى مقربة من الرئاسة قبيل الهجرة، فقدت جدواها في غمرة الصراعات الجذرية، وما تفترضه من حسم للمواقف لا تفترضها عادة الصراعات العادية. ذلك أن عبد الله بن أُبيّ وأصحابه، لم يحاولوا الإفادة من أجواء الهزيمة التي أصابت المسلمين في أُحد، وإنما اتخذت معارضتهم المنحى النقدي، وما ينطوي عليه من تثبيط للعزائم وإثارة للحوافز القبلية[2]، وكل ما يؤدي إلى توسيع دائرة السلبية وتشجيع الجيوب غير المنصهرة تماماً في الجماعة الإسلامية، على الانخراط في هذا التيار المتذبذب بين المسلمين واليهود، وربما بين المدينة ومكة، دون أن يلجأوا إلى كشف أوراقهم أو التعبير بوضوح عن أهدافهم. ومن هذا المنظور يصبح التساؤل ممكناً عن خلفيّة حركة النفاق، إذا كانت دينية أم سياسية؟ أم كلاهما معاً، حيث يصعب حينذاك الفصل بينهما في ظلّ الشخصية الجديدة للمدينة. ولذلك فإن «المنافقين»، برغم التلاحم بين العقيدة والسياسة في ذلك الوقت، ونظرة الدولة من خلال هذا المفهوم إلى المعارضة، سواء قريش أم القبائل المرتدّة فيما بعد، فإن الدوافع الراجحة لحركتهم كانت سياسية، متخذةً طابعها القبلي حيناً والاقليمي حيناً آخر، وضاربةً جذورها في الأرض إلى ما قبل الإسلام.

---

(1) ابن هشام، ج 2، ص 168.

(2) راجع البيتين المنسوبين له:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل	تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازي بغير جناحه	وإن جذ يوماً ريشه فهو دافع

المكان نفسه.

(3) ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ ـ سورة النساء ـ الآية 145.

﴿نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ ـ سورة التوبة ـ الآية 67.

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم﴾ ـ سورة التوبة ـ الآية 73.

ولعلّ هذه المسألة تكتسب طابعاً جدلياً في النهاية، إذ من الصعب في ضوء المعطيات المتوافرة تحديد إطار سياسي لحركة النفاق، لا سيما وأن الروايات التاريخية، متأثرة بالنصّ القرآني إلى حدٍّ كبير، حيث التركيز الأساسي على الجانب الديني بشكل عام، ليس في سورة «المنافقون» فقط، ولكن في سور أخرى، كانت أكثر وضوحاً في التأكيد على هذا الطابع الذي اتخذته حركة النفاق في السياق التاريخي.

وفي ضوء ما سبق يصبح الإطار الاجتماعي أشد غموضاً في هذه الحركة، التي نجهل تفاصيل تكوينها وظروف نشأتها والفئات التي انتظمت تحت لوائها. وإذا كان «القائد» يعكس طبيعة حركته ويعبّر عن تطلعاتها، فإن المنافقين أو معظمهم يمثّلون من هذا المنظور الفئة الميسورة في المدينة، تلك التي كانت لها هموم ليست هي نفسها بالضرورة هموم الفئات العريضة التي شكّلت الجماعة الإسلامية وضوت بينها عدداً كبيراً من الفقراء ومتوسطي الأحوال الذين أنقذهم الوضع الجديد من الاستغلال، شأن أقرانهم من قريش الذين عانوا تسلّط «حلف المطيبين» واحتكار الأقلية للتجارة في مكة، بمثل ما عانوه من تحالف الأقلية العربية مع اليهود في يثرب. ومن ناحية أخرى، فإن عبد الله بن أُبيّ الذي برز اسمه كزعيم أو «ملك» مرتقب للأوس والخزرج، يفترض أنه كان على جانب من الثراء، المقترن عادةً بالنفوذ، لاسيما في تلك المرحلة التي كان فيها للموقع الاقتصادي تأثير في الموقع السياسي للفرد، مما أسهم في تمزيق الوحدة الاجتماعية المبنية على القبيلة (تحالف أبو سفيان (أمية) وأبو لهب (هاشم) وأبو جهل (مخزوم) في ظل جبهة واحدة في مكة، وتحالف بعض القيادات العربية مع قبائل يهودية في يثرب على سبيل المثال).

ولعل ما يعزّز هذا الافتراض، ما كان قائماً من تحالف بين عبد الله بن أُبيّ وبعض اليهود، لاسيما بني القينقاع[1]. الأكثر غنى بين يهود المدينة، حيث كانت لهم سوق خاصة حملت اسمهم في هذه الأخيرة[2]. فالموقع الاجتماعي البارز

(1) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 215. ابن سعد، طبقات، ج 2، ص 29.
(2) ابن هشام، ج 1، ص 143، ج 3، ص 5.

لابن أبيّ الذي رشحه لزعامة العرب في يثرب قبل الهجرة، كان مبنياً على نفوذه الاقتصادي، في بيئة طغى عليها رأس المال المرتبط بالتجارة كنمط إنتاجي رئيسي في مكة، بمثل مـا هو مـرتبط بنمط متنوع تتقـدمه الـزراعة في يـثرب، فضلاً عن ارتباطه في الأخيرة بتحالفات مع أكثر القبائل اليهودية نفوذاً وأشـدها خـطراً على الـدولـة الإسـلاميـة، وهي القينقـاع، التي سرعـان مـا كشفت عن أهـدافهـا ومصالحها المتعارضة في العمق مـع الواقـع الجديـد، عندمـا نقضت عهدهـا مع المسلمين، دافعةً بهؤلاء إلى إعلان الحرب عليها وإخراجها من المدينة[1].

ولم يكن عبـد الله بن أبيّ بعيداً عن هـذه التطورات، حيث «تشبـث بـأمرهم (بنو القينقاع) وأقام دونهم»[2]، مناشداً الرسول أن «يحسن في مـواليه» الـذين اجتمعت الكلمـة على قتـالهم بسبب موقفهم المتـطرف، بمن في ذلك حلفـاء لهم شأن عبد الله بن أبيّ، ولكنهم اختلفوا عن الأخير، بأنهم كانوا أكثر انخـراطاً في الجماعة الاسـلامية ونكـراناً لـذواتهم في إطارهـا (عبادة بن الصـامت على سبيـل المثال)، وكان ضرب هذه القوى المناوئة للإسلام، أو المتظاهرة بركوب مـوجته، قـد أضعف موقف عبـد الله بن أبيّ الذي استمـدّ قـوتـه من هـذه التنـاقضـات والصراعات الداخلية، وغيرها من المعوقات التي راهن عليها، في الـوقت الذي أثبتت فيه الجبهة الإسلامية تماسكها، وقدرتها على درء الأخطار عنهـا، والانتهاء إلى أن تـطهِّر نفسهـا من أدران الوثنيـة وترسّبـاتها عـلى ذلك النحـو من السـرعة والحسم.

كانت تلك أبرز العوامل الداخلية لحركة النفـاق والعناصر المتـداخلة معها في المدينة، ممثلةً من حيث المبدأ بالفئات الغنية، المتحالفة مع بني القينقاع، أولئـك الذين لم تتقاطع مصالحهم مـع الإسلام، أو يحـدث تحوّل جذري في مفاهيمهم، شـأن الفئات الأخـرى من الأنصار الـذين اتخذوا خيـارهم الثوري في هـذا السبيل. ويـأتي العنصر القيادي بـين العناصر الهـامة في هـذه الحركـة، حيث تمكّن عبـد الله بن أبيّ من اتخاذ حيّز ما له في الحياة السياسية في المدينة، لما تمتع به من مرونة

(1) ابن هشام، ج 3، ص 5.
(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 6.

ومقدرة على رصد التناقضات الكبيرة، وعلى إخفاء حقيقة مواقفه، في الوقت الذي لم يدّخر وسيلة فيه للتقرّب من الرسول وامتداحه والدعوة إلى نصرته، كما اعتاد أن يفعل في مسجد المدينة، حيث نسب إليه ابن اسحاق القول بُعيد هزيمة أُحد: «أيها الناس هذا رسول الله (ص) بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزّزوه واسمعوا له وأطيعوا»[1]. أما علاقة المنافقين بالقوى المناوئة للدولة الإسلامية في الخارج، فليست هنالك معطيات واضحة في هذا الصدد، لاسيما العلاقة مع قريش التي كانت تحرك «الأحزاب» وتغذّي مقاومتها ضد الدولة. فثمة ما توقفت عنده الأخبار، وهو خروج رجل من الأوس يدعى أبو عامر[2]، وُصف بأنه في قومه شريف مطاع، ملتحقاً بقريش ومعه بضعة عشر رجلاً[3]، حيث نعته الرسول بالفاسق[4]. ولعل حركة المنافقين من هذا المنظور، ظلت تتسم بطابعها المحلّي، كحركة متعايشة مع الوضع الجديد، دون أن تتجاوز هذا الحيّز إلى الخطوط المحظورة، كالعلاقة مع قريش أو أطراف أخرى معادية للمدينة في الحجاز. ولعلّ إشكالية هذه الحركة، تكمن في علاقتها التي ظلّت غير محسومة بالدولة الإسلامية، بينما وجدت فيها الأخيرة حركة داخلية، أفرزتها التناقضات الاجتماعية في المدينة، دون أن يصل خطرها إلى حدّ التهديد الأمني والسياسي والديني لهذه الدولة.

وهكذا تتعايش حركة النفاق بحدود ما في ظلّ الجماعة، التي كانت وحدتها تزداد صلابة، مع ازدياد نفوذها في الداخل. وفي المقابل كانت هذه الحركة تشهد تراجعاً مستمراً في دورها وتأثيرها، لاسيما بعد الضربة القاضية التي نزلت باليهود في المدينة وطوّحت بآخر قبائلهم (قريظة) فيها بُعيد غزوة الخندق. وقد أدّى سقوط المعقل اليهودي الأخير في المدينة إلى انحسار دائرة هذه الحركة إلى حدٍّ كبير، دون أن تجد الدولة أية صعوبة في احتوائها بعد ذلك. فلم يكن ممكناً

(1) ابن هشام، ج 3، ص 46.
(2) هو أبو حنظلة الغسيل الذي قاد حفيده (عبد الله) ثورة المدينة ضد الخليفة يزيد بن معاوية. المصدر نفسه، ج 2، ص 166.
(3) المكان نفسه.
(4) المصدر نفسه، ج 3، ص 166-167.

استخدام سلاح الحياد الذي اتخذ من خلاله عبد الله بن أُبيّ حضوراً ما في المدينة، حيث الصراع الذي اتّسم بالجذرية بين الإسلام والوثنية، كان لا بد أن ينتهي بالحسم، مما يتنافى في صميمه مع الحياد، أو مع التوفيق الذي قامت عليه زعامة ابن أُبيّ قبل الإسلام.

وإذا كان من البداهة، أن هذه الحركة من محصّلات الهجرة إلى المدينة، وما أسفر عنها من قيام الدولة الإسلامية الأولى، في ظل جبهة موحدة، قوامها الأنصار والمهاجرون، فإنه من الصعب تحديد ظهورها بصورة دقيقة. ولكن ثمة ما يشير إلى ظهور هذه الحركة في بدايات الهجرة، حيث كان موقف ابن أُبيّ معرقلاً للرسول والمسلمين، ومثيراً المتاعب في طريقهم. فقد روى الزهري عن عروة بن الزبير أن الرسول كان «يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، ذلك قبل وقعة بدر، حتى مرّ بمخلط[1] فيه من المسلمين والمشركين وعبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمّر (غطى) عبد الله بن أُبيّ أنفه بردائه ثم قال: لا تغبّروا علينا. فسلّم النبي (ص) ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله وقرأ القرآن. فقال عبد الله بن أُبيّ: أيها المرء ألا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقاً، فلا تؤذنا في مجلسنا وارجع إلى رحلك فمن جاءك منّا فاقصص عليه. فقال ابن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإنّا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى همّوا أن يتواثبوا، فلم يزل رسول الله (ص) يخفظهم (يسكنهم)، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال أي سعد، ألم تسمع ما يقول أبو حباب (ابن أُبيّ)؟ قال كذا وكذا. . قال سعد أعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد اصطلح لأهل هذه البحيرة (المدينة) أن يتوّجوه، يعني يملكوه فيعصبوه بالعصابة، فلما ردّ الله تبارك وتعالى ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فلذلك فعل بك ما رأيت، فعفا عنه رسول الله (ص)»[2].

بيد أن عبد الله بن أُبيّ لم يقترن، حينذاك، اسمه بالنفاق، حيث ترددت

(1) مجلس

(2) ابن شهاب الزهري، المغازي النبوية، ص 180-181.

هذه الكلمة قبل وقعة أُحد، واستخدمت على الأرجح من جانب أهل الأخبار للدلالة على شخصيات اتّسمت بهذه الصفة منذ ذلك الوقت المبكر. فمن هؤلاء مربع بين قيظي الذي وصفه الواقدي بأنه «أعمى البصر منافق»[1]، كان قد نثر التراب في وجه النبي وأصحابه وكاد يحدث فتنة بعد أن تعصّب له «بعض بني حارثة ممن هو على رأيه»[2]. وكان أول ما تردّد من ذكر لعبد الله بن أُبيّ، منفصلاً عن هذه الصفة إبّان غزوة بني القينقاع، حيث ناشد الرسول أن يرفع الحصار عن حلفائه، فاستجاب غاضباً لطلبه، شرط أن يجلوا عن المدينة[3]. فلم يكتف، حينذاك، بما حققه من إنقاذ أصحابه من الحصار والقتل، ولكنه سعى لدى الرسول بأن «يقرهم في ديارهم»[4]، مما أثار أحد رؤساء الأنصار من الأوس (عويم بن ساعدة)[5]، وحال بينه وبين الدخول إلى النبي حتى يأذن له، فتدافعا «حتى جحش[6] وجه ابن أبيّ الجدار فسال الدم»[7]. ولعلّ هذه الحادثة تكشف جانباً أساسياً في شخصية ابن أُبيّ، الطموح والباحث دائماً عن دوره، والمتراجع في الوقت نفسه حيث تدعو الحاجة، كما تكشف نمط شخصيته المتقلبة، فضلاً عن متانة حلفه مع بني القنيقاع، متجسّداً ذلك في ردّة الفعل التي أصابت هؤلاء، إزاء ما حدث بين حليفهم وعويم بن ساعدة. ولكن عبد الله بن أُبيّ الذي كان قد وعد حلفاءه بالدخول معهم في القتال[8]، سرعان ما خذلهم وتراجع عن موقفه المتعاطف معهم، بعد أن أدرك رجحان الموقف الإسلامي واتخاذ القرار الحاسم في هذه المسألة[9].

---

(1) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 218. وردت «منافقاً ضريراً» في السير والمغازي، لابن اسحاق ص 325.

(2) المكان نفسه.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 178.

(4) المكان نفسه.

(5) ابن هشام، ج 1، ص 56. وصفه ابن الأثير بأنه حليف للأوس من بليّ. الكامل، ج 2، ص 96، ج 3، ص 78.

(6) جحش: خدش. لسان العرب، ج 6، ص 270.

(7) الواقدي، المغازي، ج 1، ص 178.

(8) المكان نفسه.

(9) المصدر نفسه، ج 1، ص 178-179.

وهكذا تتبلور شخصية ابن أُبيّ عبر هذا الدور التوفيقي، والحرص على أن يكون في وسط المسافة بين الأطراف، محتفظاً لنفسه بحدٍّ معيّن من حرية الحركة، التي تجعله يتقدم في هذا الاتجاه أو ذاك في «الوقت المناسب»، وتدفع به إلى رصد المواقف عن كثب والإفادة من المتغيرات بالسرعة الممكنة. ولكن هذا الموقف المتذبذب، سرعان ما تلاشى الجانب التوفيقي فيه، متغلباً عليه الجانب الآخر الذي يجعل من صاحبه أقرب إلى المعارضة منه إلى الموالاة، في ظلّ مرحلة كان الفرز الحادّ والانخراط المطلق، من سماتها البارزة. فلم يتّعظ ابن أُبيّ بموقف عبادة بن الصامت، وهو خزرجي مثله وكان «بمنزلة واحدة في الحلف»[1] مع بني القينقاع، عندما سارع إلى التحرر من التزامه القديم، الذي سقط أمام التزام أكثر رسوخاً في نفسه بالإسلام من رفيقه، مما جعل حلفه غير مسوّغ مع حلفائه (اليهود)، بعد نقضهم للعهد مع الرسول. وقد عبّر عن ذلك بقوله لابن أُبيّ الذي عاتبه على خروجه من الحلف: «تغيّرتْ القلوب ومحا الاسلام العهود»[2]، مبادراً، على العكس من صاحبه، إلى تحديد موقفه والإمساك بزمام اللحظة، تلك التي أعجزت ابن أُبيّ عن الإمساك بها. فقد كان عبادة من شهود «العقبة الأولى»[3]، متجذّراً الإسلام في أعماقه قضيةً رئيسة، تنتفي معها أية مساومة، بينما كان عبد الله، ممن أخذتهم الموجة وواكبوها عن غير كثب، دون أن يكون للواقع الجديد تأثير فعلي في نفوسهم، أو انعكاس واضح على آفاقهم، التي استمرت ضيقة، قصيرة المدى.

لقد كانت ثمة مسافة إذن، تفصل بين عبد الله بن أُبيّ وبين الإسلام الذي سبقه إليه آخرون من الخزرج فضلاً عن الأوس، وتعزّزوا به موقعاً بات من الصعب بعده، مجاراته أو اللحاق به. وفي ضوء ذلك فإن موقفه إبّان غزوة بني القينقاع، كان ينطوي على خيار غير آني، وإنما عبّر عن نهج سياسي ما انفك ملازماً له حتى وفاته. ويبدو أن موقفه في غزوة «أُحد»، ومحاولته «التصرّف كرجل

(1) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 179.
(2) المكان نفسه.
(3) ابن هشام، ج 1، ص 56.

مستقل»[1] ـ كما يرى مونتغمري وات ـ لم يفاجىء الرسول الذي أدرك ما تنزع إليه نفسه وما تحرّكها من دوافع، ليست هي نفسها المعلنة. فقد توسّل دائماً الاختلاف والتمايز عن الآخرين، تلك النزعة التي كانت وراء انسحابه من معسكر المسلمين في الشوط. ولكن الاعتقاد بأن ذلك قد تمّ بالاتفاق مع الرسول ـ وفقاً لرأي وات ـ للدفاع عن المدينة[2]، لا يعدو أن يكون مجرد تحليل لا تدعمه رواية الواقدي التي اعتمد عليها هذا المؤرّخ، والتي أشارت إلى تسويغ ابن أُبيّ انسحابه لعبد الله بن عمرو بن حرام، الذي حاول ثنيه عن عزمه، إذ قال مخاطباً الأخير: «لئن أطعتني يا أبا جابر لترجعن، فإن أهل الرأي والحجى قد رجعوا، ونحن ناصروه في مدينتنا، وقد خالفنا وأشرت عليه بالرأي»[3].

ولعلّ المسألة تتعدّى هذا التحليل إلى الواقع الذي أصبح واضحاً في منهج حركة النفاق، وليس فقط في الخلفية السياسية المعروفة، انطلاقاً من حرص ابن أبي على أن يكون ذلك الرجل المختلف، وغير المنصاع تماماً لرأي الجماعة، حيث بات هذا الموقف المألوف يمثّل بمعنى ما اتجاهاً سياسياً في المدينة. ذلك أن القوة العسكرية التي أعدّت للقتال في «أُحد»، كانت متواضعة[4]، إلى درجة جعلت من المستبعد جداً اقتطاع ثلثها[5] للدفاع عن المدينة، ومن ثم فتح جبهتين معاً، حسب زعم المستشرق وات. كما أن الأزمة التي سادت بين المسلمين وعبد الله بن أبيّ، بُعيد الهزيمة في أُحد، تدحض هذا الرأي، وتؤكد أن خروج الأخير من المعسكر، كان خروجاً على موقف الجماعة، ذلك الذي عبّر عنه عمر بن الخطاب في دعوته السالفة إلى قتل اليهود والمنافقين[6]. ولكن ابن أُبيّ الذي كان يعتمد على مرونته في مثل هذه الظروف، سارع إلى احتواء النقمة

---

(1) محمد في المدينة، ص 34.
(2) المكان نفسه.
(3) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 219.
(4) يقدّرها المؤرخون بألف رجل. ابن الأثير، الكامل، ج 1، ص 150.
(5) ابن اسحاق، السير والمغازي، ص 3, 4. الواقدي، مغازي، ج 1، ص 299. ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 150.
(6) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 318.

التي استهدفته من جانب المسلمين، مختلفاً كعادته إلى المجلس وداعياً أصحابه إلى مناصرة الرسول، من غير أن يحالفه الحظ هذه المرّة في تسكين غضب المسلمين، لاسيما قومه الأنصار[1] الذين رفضوا «مقالته» وأخرجوه من المسجد[2].

وعلى عكس ما كان ينشده المنافقون وزعيمهم في احتواء «التناقضات» لمصلحتهم في المدينة، فقد استطاعت الأخيرة من خلال تماسك الجماعة الاسلامية، احتواء حركتهم وإرباك مشروعها الذي انحسرت دائرته لاسيما بعد المواجهة مع اليهود، عنصر التناقض الأساسي الذي استغلته حركة النفاق لاتخاذ حيزها السياسي الخاص. ومن هذا المنظور، فإن الأزمة التي وقعت بُعيد غزوة «أحد» بين المسلمين وبني النضير، قد انعكست مباشرة على المنافقين الذين بلغ تعدادهم، حينذاك، مع «مناصريهم» ألفين[3]، حاول بواسطتهم ابن أُبيّ دعم مقاومة بني النضير وتحريضهم على الصمود وعدم الاستسلام أمام الحصار، وذلك بما نُسب إليه في رواية الواقدي: «أقيموا ولا تخرجوا، فإن معي من قومي وغيرهم ألفين، يدخلون معكم فيموتون عن آخرهم دونكم»[4]. وفي رواية أخرى: «اثبتوا وتمنّعوا، فإنّا لن نسلمكم وإن قوتلتم قاتلنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم»[5]. ولكن عبد الله بن أُبيّ الذي اعتاد التراجع عن مواقفه، لم يكن حظ بني النضير معه أحسن حالاً من بني القينقاع، تاركاً هؤلاء أمام مصيرهم[6]، في وقت كانت الدعوة إلى التعبئة وحمل السلاح قد بلغت مداها في صفوف المسلمين، الذين تسابقوا إلى قتالهم، وكان بينهم ابن لعبد الله بن أُبي يحمل نفس الإسم[7]، سيكون له دور هام في تحجيم حركة أبيه وإخفاقها بعد وقت قصير.

---

(1) كان في طليعتهم أبو أيوب وعبادة بن الصامت. الواقدي، مغازي، ج 1، ص 318.

(2) المكان نفسه.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 382.

(4) المكان نفسه. راجع: الطبري، ج 3، ص 73.

(5) ابن الأثير، ج 2، ص 173.

(6) روى الزهري أن الرسول قاتلهم حتى صالحهم على الجلاء. الطبري، ج 3، ص 38.

(7) المكان نفسه.

وهكذا تتضح أبعاد هذه الحركة الاقليمية، الرامية إلى إرباك وحدة الجماعة من خلال إثارة العصبيات المحلية في المدينة، سواء لدى اليهود أو بقايا الجيوب الوثنية في قبيلتي الأوس والخزرج. ولقد أدّى هذا النهج السلبي، الذي تكرر في بعض الغزوات والوقائع التي خاضها المسلمون في تلك المرحلة، إلى مأزق الحركة وتعثّر مشروعها الذي بدا خطيراً في السنوات الأولى من الهجرة، قبل أن تتراجع خطورته كثيراً بعد إجلاء بني النضير بصورة خاصة. وكانت محصلة ذلك في الواقع نتيجتين على جانب كبير من الأهمية: الأولى، تجلت في افتقاد الحركة ركيزة أخرى داعمة لمشروعها بعد خسارتها في بني القينقاع؛ والثانية، في ضيق مساحة التناقض التي تحرّكت عبرها كقوة ثالثة (متوسطة) بين المسلمين واليهود. ويمكن القول، بأن الدولة في المدينة، تجاوزت، حينذاك، مرحلة الخطر بشكل فعلي، بعد الاختلال الذي قامت في ظله حركة النفاق، مما جعل مراهنة قريش على ضربها من الداخل، أمراً لا يستند إلى الواقع في ذلك الحين.

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون منصرفين إلى تثبيت أوضاعهم في المدينة، دأبت القبيلة اليهودية (النضير) ـ التي توزّعت بعد إجلائها بين الشام وخيبر[1] ـ على تعبئة «الأحزاب» المناوئة للمدينة، فاتصلت بقريش وغطفان وسُليم، محرّضةً هذه القبائل على قتال المسلمين[2]. وقد أثمرت هذه الجهود عن تجنيد أعظم الحملات القرشية التي استهدفت المدينة، بمشاركة هذه القبائل، فضلاً عن بني النضير وبني أسد وأشجع ومرة وفزارة[3]، حيث قرّر المسلمون التصدّي لها في المدينة وتعزيز دفاعها بالخندق الشهير، الذي نُسبت إليه غزوة القبائل أو «الأحزاب»، كما في الروايات التاريخية[4]. وقد تردد ذكر المنافقين في هذه الغزوة، ولكن من دون عبد الله بن أُبيّ، إذ أشارت رواية ابن اسحاق، إلى أن رجالاً من المنافقين أبطأوا عن الرسول وكانوا «يتسلّلون إلى أهاليهم بغير

---

(1) الطبري، ج 3، ص 38.

(2) ابن سعد، طبقات، ج 2، ص ج 66. ابن الأثير، ج 2، ص 178.

(3) ابن سعد، طبقات، ج 2، ص 66.

(4) ابن هشام، ج 3، ص 127. ابن الأثير، ج 21، ص 178.

علم»[1] منه. كما تردّد ذكرهم مرة ثانية في سياق الحديث عن سوء جبهة المسلمين، بعد اشتداد ضغط «الأحزاب» على المدينة، حيث «نجم النفاق وفشل الناس وعظم البلاء واشتدّ الخوف وخيف على الذراري والنساء»[2]، لاسيما بعد نكوث بني قريظة، آخر القبائل اليهودية، بالعهد الذي التزمت به في الوقوف على الحياد[3]. ولقد واجه الرسول هذه الثغرة، بفتح مثلها في جبهة قريش و«الأحزاب»، عندما نجح في استمالة غطفان وإغراء قائديها[4] بثلث ثمار المدينة[5]، مما أدّى إلى اختراق هذه الجبهة القوية، وإلى إلحاق الفشل بالمحاولة الأخيرة لقريش في القضاء على دولته.

وإذا كانت غزوة «الخندق»، منعطفاً أساسياً في الصراع بين الإسلام والوثنية، خرج منه الأول راسخ الجذور في الأرض، فمن البديهي القول، إنها كرّست وحدة الجماعة وتماسكها في مواجهة محنة النفاق وخطر اليهود. فلم يعد ثمّة مجال للشك بعد ذلك، بأن الدولة الاسلامية، التي صمدت في وجه الزعازع والعواصف، تجاوزت مرحلة التهديد لكيانها وتحرّرت من هواجسها الدفاعية، ليصبح زمام المبادرة في يدها، وتحقق السيطرة الكاملة على الحجاز، بعد سنوات ثلاث فقط من هذه الغزوة الفاشلة[6].

وقد أشارت الروايات، أيضاً، إلى المنافقين في أحداث العام السادس الهجري، ومشاركتهم الفعلية في غزوة بني المصطلق، مما يعني أنهم بدأوا ينخرطون في الجماعة، برغم احتفاظهم بهذه الصفة، التي يبدو أن مدلولها الضمني، لم يعد هو نفسه، كما كان عليه الأمر قبل غزوة بني النضير. فقد تحدثت رواية الواقدي التي أوردها أيضاً ابن سعد، عن خروج الرسول ومعه

(1) الطبري، ج 3، ص 44.
(2) ابن سعد، **الطبقات**، ج 2، ص 67.
(3) المكان نفسه.
(4) عيينة بن حصن والحارث بن عوف.
(5) الطبري، ج 3، ص 48.
(6) لا يتفق معنا «دونر» في هذا الرأي، إذ يرى بأن وضع الرسول ظلّ مهدّداً بعد غزوة الخندق حتى غزوة الحديبية، حيث أصبح أكثر قدرة بعدها على السيطرة على القبائل F. Donner, *Mohammadas Political Consalidation Arabia, UP to the Conquest of Mecca*, p. 244.

«بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قط»[1]، أي في العام السادس[2]، بعد أن بلغه «أن بني المصطلق (من خزاعة) يجمعون له»[3] بقيادة الحارث بن أبي ضرار[4]. فتصدّى لهم وهزمهم عند بئر «المريسيع»[5]، حيث «قتل عشرة منهم وأسر سائرهم. . وسبى الرجال والنساء والذرية (وغُنمت) الشاء، وما قتل من المسلمين إلّا رجل واحد» حسب رواية الواقدي[6].

بيد أن شهرة هذه الغزوة في التاريخ، لا تقف عند هذه النتائج التي تتوجّت بزواج الرسول من جويرية بنت الحارث، وعتق أسرى بني المصطلق، بما يعنيه ذلك من تأثير على مواقف القبائل وعلاقتها بالمدينة. ولكنها تقترن ـ أي الغزوة ـ بإحدى أخطر محاولات «المنافقين» التي استهدفت الجبهة الاسلامية وكادت تطيح وحدتها وتدفع بها إلى شفير الحرب. فقد حدث حينذاك، بينما المسلمون حول البئر (المريسيع) ـ وكان قليل الماء[7] ـ أن «أجيراً» لعمر بن الخطاب من بني غفار (جهجاه بن سعيد) «التبست دلوه مع دلو سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج»[8]، مما أدى إلى خلاف بينهما و «إشهار سلاح»[9]، وإلى استثارة كل منهما قومه، مستنجداً الأول بالمهاجرين والثاني بالأنصار. وفي غمرة هذا التوتّر الذي هدّد «المؤاخاة» بين جناحيّ الدولة الاسلامية، تحرّكت لدى عبد الله بن أُبيّ ـ وقد كان مشاركاً في هذه الغزوة ـ نزعته «الاقليمية» التي طالما تحركت في مثل هذه المواقف، مبادراً إلى استغلال الفرصة وإذكاء الصراع بين

---

(1) الواقدي، مغازي، ج 1، ص 405. ابن سعد، طبقات، ج 1، ص 63.
(2) ابن هشام، ج 3، ص 182. ابن الأثير، ج 1، ص 192. ولكن الواقدي وابن سعد يدرجان هذه الغزوة في سياق السنة الخامسة. مغازي، ج 1، ص 44. طبقات، ج 1، ص 63.
(3) ابن هشام، ج 3، ص 182.
(4) هو أبو جويرية زوج النبي فيما بعد. ابن هشام، ج 3، ص 182.
(5) على مسافة يوم من الفُرع التي تبعد نحو ثمانية برد عن المدينة. ابن سعد، طبقات، ج 2، ص 63.
(6) المغازي، ج 1، ص 406. راجع أيضاً: ابن سعد، الطبقات، ج 2، ص 64.
(7) الواقدي، مغازي، ج 2، ص 415.
(8) ابن سعد، طبقات، ج 2، ص 65.
(9) الواقدي، مغازي، ج 2، ص 415. ابن هشام، ج 3، ص 183. الطبري، ج 3، ص 64.

الطرفين. فقد استبدّ به الغضب أمام «رهط من قومه»[1]، حرّضهم على المهاجرين بقوله: «قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا.. وأنكروا منّتنا»[2]. وقد بلغت هذه العصبية ذروتها في موقف عبد الله بن أبيّ، الذي كشف ما تنطوي عليه نفسه من حقد على المهاجرين، وتوقٍ إلى التخلّص منهم، ذلك الهاجس الذي ما انفك مسيطراً عليه منذ الهجرة، وتجسّد في تهديده لهم بقوله الشهير: «لئن رجعنا إلى المدينة، ليُخرجن منها الأعزّ الأذل»[3].

كانت هذه العبارة كافية لإحداث «الفتنة» التي توخّاها عبد الله بن أُبيّ، ولكن صلابة الجبهة الإسلامية، حالت دون وقوعها، حيث كان لردّة الفعل الهادئة لدى المسلمين وما رافقها من نظرة بعيدة في معالجة هذه الأزمة، تأثير كبير في إخفاقها، على الرغم من جهود ابن أُبيّ لاستدراج المهاجرين إلى صراع مع الأنصار، وتأليب هؤلاء عليهم، متوخّياً تكتيلهم إلى جانبه، وتعبئتهم تحت شعار استعادة كيانهم ونفوذهم في المدينة، وذلك بما نسب له من قول: «هذا ما فعلتم بأنفسكم، احللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما الله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم»[4]. ولا شك أن حركة ابن أُبيّ خلال هذه الغزوة كانت شديدة الخطورة على وحدة المسلمين وربما على الدولة نفسها، إذا ما توقفنا عند رواية أوردها ابن العديم، تشير إلى مؤامرة لاغتيال قائدها (الرسول)[5]. ولكن هذه «المؤامرة» التي كان للصحابي المعروف

---

(1) ابن هشام، ج 3، ص 183. الطبري، ج 3، ص 64. جاء في مغازي الواقدي أنهم عشرة من المنافقين، ج 2، ص 416.

(2) ابن هشام، ج 3، ص 183. الواقدي، ج 2، ص 416.

(3) سورة المنافقون، الآية 8.

(4) ابن هشام، ج 3، ص 182.

(5) روى صلّة بن زفر: «وقلنا لحذيفة كيف عرفت المنافقين ولم يعرفهم أصحاب النبي محمد (ص): أبو بكر ولا عمر؟ قال: إني كنت أسير خلف النبي (ص) ذات ليلة، فنام على راحلته، فسمعت ناساً منهم يقولون: لو طرحناه عن راحلته فاندقت عنقه واسترحنا منه، فسرتُ بينهم وبينه وجعلت أقرأ وأرفع صوتي فانتبه النبي (ص) فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة، فقال: من هؤلاء خلفك. قلت فلان وفلان وفلان حتى عددتهم. قال: وسمعتَ ما قالوا؟ قلت نعم ولذلك سرتُ بينك وبينهم. قال: فإن هؤلاء فلان وفلان منافقين فلا تخبرن أحداً». بغية الطلب في تاريخ حلب، المجلد الخامس، ص 2166-2167.

حذيفة بن اليمان دور في إفشالها بعد تنبيه الرسول لها في الوقت المناسب، لم ترد أخبارها في المصادر المتقدّمة، مما يجعل هذه الرواية موضع نقاش، وربما موضع شك. ولعلّ هذه «المؤامرة» التي آثر استخدامها ابن العديم في «بغيته»، ليست سوى فتنة بني المصطلق، أو أحد فصولها، الذي بقي محصوراً، كما «الفتنة» عامة بالمنافقين، دون ثمة ما يتعارض وهذا الأمر في الروايات التاريخية التي تجنّبت إسقاط مواقف ابن أبيّ وأصحابه على الأنصار، بقدر ما كان الموقف الرافض لهذه الفتنة (المؤامرة)، هو البارز بوضوح فيها[1].

ولكن ابن أبيّ الذي ما انفك يرصد السوانح لتحقيق طموحه في السلطة، أدرك مرة أخرى تجاوز الزمن لمشروعه الذي أصبح جزءاً من الماضي المرفوضة عودته أو العودة إليه من جانب الأنصار، بمن فيهم أحد أصحابه[2] الذي أسرّ للرسول بمقولة ابن أبيّ عن المهاجرين، حيث كان عنده من هؤلاء عمر بن الخطاب الذي ضاق ذرعاً بمواقف ابن أبيّ واستأذن الرسول مجدداً بأن يأمر بقتله. بيد أن الرسول الذي سبق أن صفح عن ابن أبيّ والدولة كانت لا تزال غضة العود، محاصرةً بالأخطار بعد هزيمة أحد، لم يشأ الخروج على نهجه، في وقت تجاوزت دولته المنعطف الصعب، وباتت القوة الأولى في شبه الجزيرة العربية، فضلاً عما يعكسه قرار قتله ـ لو حدث ـ من تأثير سلبي على وحدة المسلمين في المدينة. وقد عبّر هذا القرار الحكيم عن عمق التجربة السياسية لدى الرسول، الذي أنقذ دولته من خطر الصراع الداخلي، متفادياً التداول في هذه الأزمة، عندما سارع إلى الإيذان بالرحيل «وذلك في ساعة لم يكن رسول الله (ص) يرتحل فيها»[3].

وهكذا تمّ إحباط «الفتنة» التي افتعلها عبد الله بن أُبيّ، وسارع الأخير كعادته إلى التراجع عن موقفه، وإلى إنكار ما نسب إليه قوله[4]، دون أن يترك ذلك أثراً على موقف الأنصار الذي عبّر عنه أسيد بن حضير بقوله مخاطباً

(1) راجع مواقف سعد بن عبادة وأسيد بن حضير وعبد الله بن عبد الله بن أبي وغيرهم.
(2) زيد بن أرقم. الطبري، ج 3، ص 64.
(3) المكان نفسه.
(4) صحيح البخاري، ج 6، ص 160. الواقدي، مغازي، ج 2، ص 418.

الرسـول: «فـأنت والله يـا رسـول الله تخـرجـه إن شئت وهـو الـذليـل وأنت العزيز»[1]، كما عبّر عنه بصورة أكثر عمقاً ابن عبد الله بن أُبيّ (عبد الله) في قوله للرسول أيضاً: «بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمـرني به، فـأنا أحمـل إليك رأسـه. .»[2]. بيد أن الـرسول لم يـدّخر من جانبه وسعاً في مبادلـة موقف الأنصـار بمثله، لاسيما وأن هؤلاء كـانوا يجـدون في تعاطفه معهم[3]، ما يبدّد كل حفيظة في نفوسهم على المهاجرين. فقـد قال لإبن عبد الله ـ وقد مرّ به وهو يهدّد أباه بأنه الذليل ومحمد العزيز[4] ـ «دعه، فلعمري لنحسنن صحبته ما دام بين أظهرنا»[5].

على أن هذه الحادثة التي انتهت ذيولها مع عودة المسلمـين إلى المدينـة، لم تخلّ الروايات بشأنها من بعض الارتياب، بأن ما نُسب لإبن أُبيّ قـد حُرِّف للرسـول عـلى لسان زيـد بن أرقم، الذي أشـارت إليه روايـة ابن إسحـاق بـأنـه «غـلام حديث السن»[6]. ولكن الرسول في رواية أخرى، يخاطب الأخير بقولـه: «وفت أذنـك يـا غـلام وصـدّق الله حـديثـك»[7]، حيث نـزلت، حينـذاك، سـورة «المنافقون» في ابن أُبيّ. وقد عزّزت رواية الواقدي هذا الشك في سياق الحديث عن تـوبة عبـد الله بن أُبيّ، بعد نفيـه للرسول مـا نقلـه عنـه زيـد بن أرقم[8]، متأرجحة ـ أي الـرواية ـ بـين حسن الظن وسـوئه[9]، إزاء هـذه المسألـة. وإذا كانت السورة القرآنية، قد حسمت الأمر بتأكيد ما نُقل عن ابن أُبيّ: ﴿يقـولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ، ولله العزة ولرسـوله والمؤمنـين،

(1) الطبري، ج 3، ص 65.
(2) ابن هشام، ج 3، ص 184. الواقدي، مغازي، ج 2، ص 421.
(3) راجع قول الرسول لـو سلك الأنصار شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. وقد ورد في مكان سابق من هذه الدراسة.
(4) ابن سعد، **طبقات**، ج 2، ص 65.
(5) المكـان نفسه. وردت عنـد ابن هشـام «بـل نترفق بـه ونحسـن صحبته مـا بقي معنـا». ج 3، ص 184.
(6) الطبري، ج 3، ص 64.
(7) الواقدي، مغازي، ج 2، ص 420.
(8) المصدر نفسه، ج 2، ص 418.
(9) «فكان يظن أنه قد صدق وكان يظن به سوء الظن». المكان نفسه.

ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[1]، فإن الرسول واجه الأمر نظرياً وعملياً في آن، من غير أن يكون الثاني مجسِّداً للأول بصورة مطلقة. فقد تكامل الدور الرسالي ـ الذي جاء حاسماً إزاء قضية خطيرة، وأثارت فوق ذلك جدلاً بين المسلمين ـ مع الدور السياسي، بما ينطوي عليه من مراعاة للتوازن، وحرص على عدم إحراج الأنصار الذين «لاموا»[2] ابن أرقم على إخباره الرسول، مما سيحملهم أو بعضهم على «التحزّب» لابن أبيّ، فيما لو اتخذ إجراء آخر معه.

ولعلّ موقف عبد الله بن أبيّ في غزوة بني المصطلق، كان نهاية المطاف بالنسبة للمنافقين، كحركة داخلية «معارضة» لدولة المدينة التي لم تجد صعوبة في احتوائها وإضعافها، ومن ثم جعلها تتعايش معها، مجسدةً بمعنى ما تياراً سياسياً لم يصل بخطورته إلى مستوى الحركة اليهودية، المتعارضة من حيث المبدأ مع هذه الدولة. وقد تجلّت هذه السياسة الاحتوائية في الغزوة نفسها، التي شارك فيها المنافقون كفئة لها حيّز معين، كما سبقت الإشارة، وتجلّت أيضاً في آخر محاولاتهم إبّان غزوة تبوك، حيث تردّد في رواية ابن إسحاق، ذكر مجموعتين تقاعستا عن المشاركة فيها: الأولى مثّلها من سمتهم بـ «المعذرين» من الأعراب، الذين «اعتذروا إليه (الرسول) فلم يعذرهم الله تعالى»[3]؛ والثانية مثّلها ما عرف بـ «المتخلفين» الذين لم يُشك بإسلامهم، وإنما «النية» أبطأت بهم «عن رسول الله (ص) حتى تخلّفوا عنه عن غير شك ولا ارتياب»[4].

ومن هذا المنظور، فإن حركة النفاق، افتقدت أو كادت حيّزها الخاص، لتنخرط في الحيّز العام للدولة، ذلك الذي اتسعت حينذاك دائرته، لتشمل ما يتعدّى المهاجرين والأنصار، إلى فئات أخرى من خارج المدينة[5]، ولكن هذه الحركة على ما يبدو كان لها حضور مختلف، استمدته من شخصية زعيمها وموقعه الاجتماعي (القبلي)، الذي كانت له خصوصيته لدى قومه، على الرغم

(1) الآية رقم 8.
(2) صحيح البخاري، ج 6، ص 190.
(3) ابن هشام، ج 3، ص 120. الطبري، ج 3، ص 143.
(4) ابن هشام، ج 3، ص 120.
(5) المكان نفسه.

من التعارض في المبدأ والرؤية والموقف. وكان هذا التمايز يدفعه أحياناً إلى التطرّف غير المسوّغ وافتعال الأزمات الصعبة، مما أدّى به في النهاية إلى العزلة والتراجع إلى هامش الحركة السياسية التي كان محورها الرسول والجماعة الاسلامية.

ولم تكن حملة تبوك حدثاً عادياً أو مجرد غزوة لها طابعها الاقتصادي أو الأمني، على غرار السرايا والغزوات التي انطلقت بصورة دورية من المدينة. فهي تندرج في سياق المشروع السياسي التوسعي للدولة الإسلامية ـ الذي بدأت ملامحه في حملة مؤتة السابقة ـ الرامي إلى توحيد القبائل العربية في الشام، تحت لواء الدولة الإسلامية، وما افترضه ذلك من مواجهة حتمية مع الدولة البيزنطية، في وقت كانت فيه الأخيرة دائبة على تنظيم إدارتها في الشام، على نحو يتيح لها السيطرة المباشرة عليها، ويحول دون تكرار الاحتلال الفارسي لها. فقد تحدثت الروايات عن أخبار وصلت إلى الرسول عبر تجار الأنباط الذين اعتادوا التردّد على المدينة قبل الإسلام، بأن «الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة، وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها»[1]. وفي ضوء هذه التطورات وانعكاسها على المدينة، بادر الرسول إلى التحرك وتعبئة المقاتلين محرِّضاً الأغنياء على تمويل الحملة[2]، فضلاً عن اتخاذ قرار بأن يقودها بنفسه، والسير في أضخم حشد شهدته المدينة التي شارك منها المهاجرون والأنصار، فضلاً عن بعض القبائل التي التحقت بهذه الحملة[3]، معبِّراً بذلك عن أهمية الشام في سياسته الخارجية، لما تمثّله من عمق جغرافي و «قومي» ـ إذا جاز التعبير ـ للدولة الإسلامية.

ولكن ماذا عن دور المنافقين في هذه الحملة الكبيرة؟ لقد جاء بعضهم ـ كما تشير الرواية ـ إلى الرسول متثاقلاً عن المسير، وقد تجاوز الثمانين رجلاً، يستأذنون «من غير علة»[4]، إذ كان الحرّ شديداً «والثمار قد طابت، فأحب

(1) الواقدي. مغازي، ج 3، ص 990. ابن سعد، طبقات، ٢، ص 167.
(2) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 991.
(3) قيل إن الرسول قدم تبوك في ثلاثين ألفاً من الناس. ابن سعد، طبقات، ج 2، ص 166.
(4) الواقدي، ج 3، ص 995.

الناس المقام في ثمارهم، فتجهزوا على كره»[1] وقد حدا ذلك بالمنافقين إلى التلكّؤ، متذرّعين بشدة الحر[2]، حيث كان لهذا الموقف صداه القرآني، المتمثّل بالآية الكريمة ﴿. . . وقالوا لا تنفروا في الحرّ قلْ نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾[3]. بيد أن المنافقين على ما يبدو شاركوا في حملة تبوك، ولكن مع تراجع واضح في المدلول الديني للنفاق، بعد غلبة السمة السياسية عليه، ورجحان الخروج للكثيرين ـ ربما من دون الاسم ـ من هذه الحركة بصورة فعلية. كان ذلك ما تطور إليه وضع المنافقين في الدولة الإسلامية في العام التاسع للهجرة، من تعايش واندماج في الجماعة، سواء في السلم أم في الحرب. ولعل في مجريات غزوة تبوك، ما يؤكد هذا الواقع، حيث يأتون في إحدى الروايات، مستأذنين من الرسول فيأذن لهم[4]، وبعضهم «يسير»[5] معه في رواية ثانية، ويمازح أحدهم (جدّ بن قيس)[6] ويعرض عنه فلا يحمله على الغزو في رواية ثالثة[7].

كما أخذت تنحسر في تلك الفترة الدائرة الفكروية[8] للنفاق، متقدماً عليها المدلول اللغوي للكلمة التي أصبحت كمصطلح تعني الفئات المتردّدة وغير المنصهرة تماماً في الحركة الإسلامية، ولكن دون أن تكون خارجها أو منفصلةً عنها، لاسيما خلال الفترة المتأخّرة من دولة الرسول. ولعلّ بعض الروايات لم تستوعب هذه الإشكالية، انطلاقاً من المفهوم الديني الذي رافق الوعي التاريخي عند المسلمين، وجعلهم يرفضون مبدأ «القوة الثالثة»، مهما كانت نوازعها والأسباب المحرّكة لها، مما أخضع المنافقين لتقويم تأريخي غير دقيق أو ملتبس على الأقل. فإذا ما توقّفنا عند أخبار عبد الله بن أبيّ في غزوة تبوك، سنجد أن ثمة لبساً واضحاً في هذه المسألة، إذ تسهم بعض الروايات بصورة عفوية في

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 277.
(2) الطبري، ج3، ص 142.
(3) سورة التوبة: الآية 81.
(4) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 965.
(5) المكان نفسه.
(6) الطبري، ج 3، ص 142.
(7) ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 218.
(8) الإيديولوجية.

تضخيم دوره، فضلاً عن اللَّبس الخطير بمشاركة اليهود تحت رايته في هذه الحملة، في وقت لم يعد لهؤلاء حضور سياسي في الحجاز، بعد الضربة القاضية التي نزلت بهم في خيبر. فقد أشارت رواية الواقدي، إلى أن عبد الله بن أُبيّ، «قد عسكر على ثنية الوداع في حلفائه من اليهود والمنافقين»[1]، بينما سقط اليهود من رواية ابن إسحاق التي أوردها ابن هشام والطبري، في قولها «إن إبن أُبيّ ضرب عسكره على حدة عسكره أسفل منه»[2]، أي الرسول. ولكن هذه الروايات كانت متفقة على أن عسكره «ليس بأقل العسكرين»[3]، مما يضع عبد الله بن أُبي في موقع لم يكن من السهولة اتخاذه في ذلك الوقت. لذلك فإنه من المستبعد جدّاً أن يكون له هذا الدور الكبير في غزوة تبوك، بعدما أصاب حركته من تعثّرٍ وتراجعٍ، خصوصاً بعد غزوة بني المصطلق.

على أن ابن أُبيّ، برغم ما كان يُزعم عن قوته[4]، لم يغادر على الأرجح المدينة، متخلّفاً عن حملة الرسول، حيث تضاربت الروايات مرةً أخرى في هذا السبيل، ولكن دون أن يكون المنافقون وحدهم المتخلفين عن المسير إلى تبوك. فقد تخلّف أيضاً نفر من المسلمين لا يُرتاب بهم حسب رواية ابن سعد[5]، في الوقت الذي أحجم فيه عبد الله بن أُبيّ عن المسير «فيمن تبعه من أهل النفاق»[6]، وكان بينهم من عُرفوا بأنهم «من عظماء المنافقين» حسب رواية ابن إسحاق[7]، معبّرة حينذاك عنهم الآية الكريمة ﴿.. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾[8]. ولعلّ هذا الموقف لم يكن منسحباً على جميع الذين شملتهم التسمية، إذ شارك بعضهم في

---

(1) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 995. ابن سعد، طبقات، ج 2، ص 165.
(2) ابن هشام، ج 3، ص 120- ، الطبري، ج 3، ص 143.
(3) راجع المصادر السابقة.
(4) الطبري، ج 3، ص 143.
(5) الطبقات، ج 2، ص 166.
(6) ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 278. راجع أيضاً: ابن هشام، ج 3، ص 120. الطبري، ج 3، ص 143.
(7) الطبري، ج 3، ص 143.
(8) سورة التوبة ـ الآية 48.

الحملة، استناداً إلى رواية الواقدي التي جاء فيها: بأنه «كان رهط من المنافقين يسيرون مع النبي (ص) في تبوك»[1]، مما يحمل على الاعتقاد، بأن حركة النفاق لم تكن موحدة، أو مندرجة في إطار فكروي واضح، على نحو يزيل اللُّبس، بأن لها دوراً ما في المدينة خلال هذه الفترة.

وكان يبدو أن حركة النفاق قد بلغت أيامها الأخيرة في ذلك الوقت، كحركة لها إطارها الزمني والسياسي المعروف، فضلاً عن الديني المعلن في السياق القرآني والروايات التاريخية، وإن كانت كظاهرة، حتى في ظلّ المفهوم نفسه، قابلة للاستمرار بشكل علني أو مقنّع في كل عصر. فقد كان آخر ما توقفت عنده الروايات بشأن هذه الحركة، ما ذُكر عن «إرجاف» المنافقين بعلي بن أبي طالب، الذي بقي في المدينة بأمر من الرسول بعد خروجه إلى تبوك[2]. ومن اللافت أن أية رواية لم تُشِر إلى عبد الله بن أبيّ ودوره في هذه الحادثة، مما يرجّح تخلّيه عن هذا الأمر، أو أن المرض الذي نزل به دفعه إلى ذلك، حيث توفي بعد شهر من عودة الرسول إلى المدينة[3]، فكان يعوده - على ما يقال - في داره، حتى إذا كان يومه الأخير، دخل عليه الرسول معاتباً على ما فعله وأنهاه عنه، فلم يشأ ابن أبي الخوض في هذا الأمر[4]، ولكنه طلب من الرسول أن يصلّي عليه ويستغفر له[5].

وهكذا كانت نهاية حركة النفاق التي كانت إحدى محصلات الهجرة إلى المدينة، ونشأت في ظلّ التناقضات التي بلغت ذروتها بين المسلمين واليهود، وانعكست بصورة ما على العلاقة بين المهاجرين والأنصار، طامحاً من خلالها، ابن أبيّ، إلى اتخاذ موقع سياسي له في المدينة. ولا شك أن حسم المسألة اليهودية، قد أضعف كثيراً هذه الحركة التي اقتصر مجالها على محاولة اختراق الجبهة الإسلامية وإذكاء العصبية الإقليمية بين الأنصار (أهل المدينة) وبين المهاجرين (أهل مكة). ومن ناحية أخرى، فإن صلابة هذه الجبهة، التي عزّزها

---

(1) المغازي، ج 3، ص 1003. ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 278.
(2) ابن هشام، ج 3، ص 122. الطبري، ج 3، ص 143.
(3) الواقدي، مغازي، ج 3، ص 1057.
(4) المكان نفسه.
(5) قيل إن الرسول خلع قميصه وألبسه إياه. ابن هشام، ج 4، ص 145.

طغيان القضية المشتركة على النزعة الذاتية، واحتضان الرسول للأنصار، وهؤلاء للمهاجرين، فضلاً عن الفرز الذي أنتجه الصراع مع اليهود، كل ذلك أدّى إلى رفض هذه الحركة واعتبارها خطراً على الجماعة في المدينة، سواء كانت في دوافعها سياسية، أي معارضة للدولة، أم كانت لها خلفية دينية، جعلتها غير متحمّسة للدعوة في الأصل.

بيد أن حركة النفاق، وبعيداً عن أي تقويم ديني أو فكروي، لم تشكّل خطراً مباشراً على الدولة الإسلامية، التي نجحت في استيعابها وتهميش دورها في المدينة، مراعيةً فيها العنصر الخاص، المتّصل بشخصية زعيمها عبد الله بن أبي بن سلول. ولكن الجانب المشرق في الحقيقة كان في موقف الدولة منها، متمثّلاً في الدور الذي اتخذته بصورة ما في إطار الجماعة، والمعبّر، ليس فقط عن المناخ السياسي الرحب الذي تقبّل - برغم الحذر - مثل هذه الحركة طيلة تسع من السنوات، ولكن عن المناخ الفكري الرحب أيضاً، المتجسّد في موقف الرسول من عبد الله بن أبيّ عشية وفاته. فقد عبّر ذلك من دون شك عن السياسة الموضوعية التي انتهجها الرسول في مواجهة الانقسام الداخلي، حيث النظرية ليست مغتربة عن الواقع بتعقيداته ومشكلاته، وإنما هي مقترنة به إلى حدّ الالتحام، مؤدياً ذلك إلى ترسيخ بنيان مجتمع - نموذج، تسوده الأخوة والعدالة والحرية، ولا يلغي بعض منه البعض الآخر.

الباب الثالث

زعامات أنصارية جديدة بعد الرسول

نموذج : قيس بن سعد

انتقلت إلى قيس[1] زعامة قومه في الإسلام، بعد وفاة أبيه سعد بن عبادة، بصورة غامضة في الشام (حوران)[2]، وإن كانت تعتبر من محصِّلات «السقيفة» التي اتخذ الأخير من بيعتها موقفاً رافضاً، حيث طرح نفسه، حينذاك، مرشّحاً غير اجماعي للأنصار، واضطر إلى التخلّي عن قراره، ولكن دون الرضوخ للنتائج التي انتهى إليها الأمر، بانتخاب أبي بكر أول خليفة للمسلمين[3]. ولا شك أن الخزرج كان لهم دور كبير في التطورات الهامة التي تتوّجت بالهجرة إلى يثرب، بعد معاناة مرّ بها الرسول وأصحابه في مكة، التي كان من العسير على أي موقع حضري في الحجاز - باستثناء يثرب - منافستها أو تحدِّيها في أمر كذلك، حيث التكوين الاجتماعي التعدّدي - إذا جاز التعبير - جعلها عرضةً للصراعات المستمرة، سواء الصراع العربي - اليهودي، بعد تكتّل بني النضير وقريظة ضد العرب، أم العربي - العربي، الذي كان آخر وجوهه الدامية «يوم بعاث»[4]، مؤدياً ذلك، سواء الضغط اليهودي على العرب، أم اقتتال هؤلاء فيما بينهم وعلى

---

(1) هو ابو عبد الملك قيس بن سعد بن عبادة بن دُليم من بني ساعدة بن كعب بن الخزرج. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 6، ص 52-53.

(2) توفي سنة ست عشرة. تاريخ خليفة بن خياط، ج 1، ص 25.

(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 37.

(4) الطبري، ج 2، ص 233.

مرأى الحواضر والقبائل العربية الأخرى في الحجاز، لاسيما قريش التي اشترطت عليهم ـ أي الأوس والخزرج ـ «شروطاً لم يقنعوا بها»[1]، إلى اتخاذ القرار الكبير الذي أخرج القبيلتين من العزلة ورفع عنهم نير الاقتتال الداخلي، فضلاً عن كسر المعادلة الحجازية وانعكاس نتائجها السلبية السريعة على مكة.

أطلّ قيس على الإسلام، إذن، من الباب الكبير، واكتسب «صحبة» النبي، انطلاقاً مما كان للبيت الذي عاش فيه من دور في نشوء الدولة الإسلامية الأولى. وكان لديه من الصفات الشخصية والاجتماعية المميزة، سواء تمثّلت بقامته الطويلة[2]، أو بجوده المفرط[3] أو بشجاعته اللافتة[4] أو بحزمه الموصوف[5] أو برأيه النافذ[6]، ما كان يؤهّله لموقع قيادي، سرعان ما تبوّأه عن جدارة في أيام الرسول وفي عهديّ عليّ والحسن. على أن قيساً برغم وصف الروايات التاريخية له، بأنه «صاحب راية الأنصار، مع رسول الله (ص)»[7]، لم يكن في الصفوف الأولى من قيادات المدينة في ذلك الحين، ربما لأن الدور الأساسي في بيته وفي قومه كان معقوداً لوالده، الذي عُهدت إليه مهمات كبيرة، عسكرية[8] أو إدارية[9]. ولكن اسمه أخذ في البروز منذ السنة الثامنة للهجرة، في وقت تجاوزت فيه المدينة مرحلة السرايا إلى الغزوات، مشاركاً في غزوة الخبط التي قادها أبو عبيدة بن الجرّاح ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار[10]. كما تردّد

(1) اليعقوبي، تاريخ، ج 1، ص 37.
(2) أنساب الأشراف، ج 4، ص 43.
(3) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 6، ص 65. ابن الأثير، الكامل، ج 2، ص 233.
(4) المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 17.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 269.
(6) شرح نهج البلاغة، ج 5، ص 268.
(7) ابن الأثير، ج 3، ص 268.
(8) حراسة بيت الرسول مع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير أثناء وقعة الخندق. أنساب الأشراف، ج 1، ص 314-317. وكذلك حراسة المدينة أثناء خروج الرسول في غزوة الغابة. ابن سعد، غزوات الرسول وسراياه، ص 80-81.
(9) كلفه الرسول بأن ينوب عنه في المدينة بعد خروجه في غزوة الأبواء. البلاذري، أنساب، ج 1، ص 278. (ت حميد الله).
(10) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 275.

اسمه في السنة نفسها، عندما بعثه الرسول بعد عودته من الجعرانة «إلى ناحية اليمن وأمره أن يطأ صُداء»[1]. وقد كان لهذه المهمة نتائج باهرة على صعيد انتشار الإسلام في هذه المنطقة، حيث سارع أهل صُداء إلى إيفاد رجل منهم إلى الرسول، بعد اتخاذ قيس معسكره في أربعمائة من المسلمين بناحية قناة، قائلاً له فيما يرويه ابن سعد: «جئتك وافداً من ورائي فاردد الجيش وأنا لك بقومي، فردّهم رسول الله (ص)، فقدم منهم على رسول الله (ص) خمسة عشر رجلاً فأسلموا وبايعوا رسول الله (ص) على من وراءهم من قومهم ورجعوا إلى بلادهم، ففشا فيهم الإسلام، فوافى النبي (ص) مائة رجل منهم في حجّة الوداع»[2].

ويتابع قيس دوره لصيقاً بالنبي في تلك السنة ـ المنعطف ـ من تاريخ الإسلام، التي شهدت لأول مرة خروج الدولة من دائرتها الحجازية، والاتصال بالقبائل العربية في الشام (حملة مؤتة)، وما شكّله ذلك من إرهاص لإعادة النظر في التوازن السياسي الدولي في المنطقة الشامية[3]. وتتوّجت هذه السنة (الثامنة) بأوّل الفتوح في الإسلام، وهو فتح مكة، ومعه القضاء على رموز المجتمع الوثني و «قيمه»، إذ تردّد اسم قيس في إحدى الروايات، بأن النبي دفع إليه الراية التي كان يحملها والده، بعدما بلغه عن الأخير من «كلام في قريش وتوعّدٍ لهم»[4]، خلافاً للسائد عن هذه الحادثة في معظم الروايات كما سبقت الإشارة.

ولم تشر الروايات إلى دور قيس في السقيفة، باستثناء ما ورد في «الإمامة والسياسة» من خلطٍ بين اسمي قيس بن سعد وبشير بن سعد[5] الذي كان من سادات الخزرج أيضاً وأول من بايع الخليفة الأول من الأنصار[6]. وقد

---

(1) ابن سعد، **الطبقات**، ج 1، ص 326.
(2) المكان نفسه.
(3) ابراهيم بيضون، حملة مؤتة، مقاربة للمشروع السياسي الأول للدولة الاسلامية في بلاد الشام، ص 14، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ـ الندوة الثانية، 1985.
(4) ابن سعد، **الطبقات**، ج 1، ص 135.
(5) **الإمامة السياسية**، ج 1، ص 8-9.
(6) اليعقوبي، **تاريخ**، ج 2، ص 124.

تفاوتت، حينذاك، المواقف لدى هؤلاء، ما بين مؤيد[1] أو متلكىء[2] أو مثبِّط[3]، إذ يفترض اندراج قيس في الفئة الأولى، ولكنه على الأرجح لم يجارِ أباه في الحماسة لمشروعه، مدركاً بثاقب نظره ما يحيط به من صعوبة وما يثيره من معارضة لدى المهاجرين، الذين تعزّز حضورهم في الدولة، بعد فتح مكة، وما أدّى إليه ذلك من توحيد للجبهة القرشية بجناحيها المهاجر وغير المهاجر حول قضية السلطة. وقد يؤيّد هذا الرأي وجود قيس - خلافاً لوالده - في معترك الأحداث التي شهدها العهد الراشدي الأول، لاسيما المشاركة الفاعلة في معركة اليرموك، حيث ورد اسمه مفاوضاً عرب الشام وقائدهم آخر «ملوك» الغساسنة، جبلة بن الأيهم، واضعاً الأخير بين خيار الإسلام ومراعاة «صلة الرحم»، وبين خيار الحرب التي أصرَّ عليها جبلة، مما دفع خالد بن الوليد إلى قتاله، و «انتخاب ستين رجلاً من أصحاب رسول الله (ص) معظمهم من الأنصار. وكان فيهم قيس بن سعد»[4]، حسب الرواية التاريخية.

ولا يلبث قيس وقومه أن يتراجعوا إلى الظل في عهد الخليفة عثمان، الذي لم يتسع المجال فيه لغير الأقرباء والمقرَّبين، باستثناء قلة قليلة من الأنصار تعاطفت مع الخليفة واندرجت في «حزبه» بعد مقتله، كان يمثّلها، خصوصاً حسان بن ثابت والنعمان بن بشير[5]. وكان من نتائج تلك السياسة التي انعكست سلبياتها بصورة خاصة على الأنصار في معقل دارهم بالمدينة، أنهم لم يبالوا بالأحداث التي شهدتها الأخيرة، ولم يسوِّغوا لأنفسهم التدخّل في مسار التطورات التي بدت لهم غير مجهولة. ولكن الأنصار لم يستمرّوا طويلاً خارج الدور الذي سرعان ما انخرطوا فيه، مع مجيء خليفة (علي) يتعاطفون معه في الكثير من الأمور، فإذا بهم أركان العهد الجديد، وزعيمهم قيس بن سعد، موضع ثقة الخليفة، يعهد إليه بالمهمات الصعبة والدقيقة. فقد كان أحد الذين

(1) غالبية الأنصار، الطبري، ج 3، ص 209. أنساب الأشراف، ج 1، ص 583.
(2) بشير بن سعد الخزرجي، الطبري، ج 3، ص 209.
(3) أسيد بن حضير الأوسي. المكان نفسه.
(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 8، ص 14.
(5) ينتميان إلى الخزرج.

تولّوا المفاوضة مع قبائل الكوفة، بغية «استنفارها» للقتال ضد حركة البصرة. ولكن الروايات لا تخلو من لبس يتعلق بأسماء المفاوضين الذين ربما ترددوا أكثر من مرّة على الكوفة في هذا السبيل. ولعلّ قيساً لم يكن مشاركاً في الوفد الأول الذي ضمّ ـ حسب معظم الروايات ـ كلاً من الحسن وعمّار بن ياسر[1]، بينما تفرّدت إحدى الروايات بإيراد اسمه في وفدٍ يُرجَّح أنه الثاني، ضمّه وعبد الله بن عباس، إلى جانب الاثنين السابقين[2]. وقد أدّت هذه المهمة إلى حسم الموقف الكوفي، الذي شابه شيء من الارتياب، نتيجة للدور الغامض الذي قام به آخر ولاة المدينة في العهد السابق[3].

وهكذا برز قيس بين قادة علي البارزين، إذ إن المهمة الأولى التي تولاها، لم تكن أمراً بسيطاً في ذلك الحين، وإنما كان لها تأثير كبير في تطورات المرحلة المعقدة. فالتأييد الكوفي للعهد الجديد، أسفر عنه خروج الخلافة من الحجاز، فضلاً عن تعديل الموازين العسكرية في البصرة التي لم تكن في البداية لمصلحة عليّ، كما أدّى إلى تفوق جبهته في صفين حتى إعلان «التحكيم» وبداية التراجعات التي أورثتها هذه المسألة. فقد ارتبطت الكوفة مصيرياً بالاتجاه الذي مثّله عليّ وأبناؤه من بعده، وأصبحت قاعدة التشيّع السياسي الذي اصطبغ أو كاد بالصبغة اليمنية[4]، حيث الغالبية الساحقة من قبائلها تحدّرت من أصل يمني، مثل همدان وكندة وخزاعة والأزد ومذحج وفرعيها نخع وبجيلة[5]، وغيرها من القبائل التي خاضت صراعاً عنيفاً تحت هذه الراية ضد السلطة الأموية.

ولعلّ ما يمكن استنتاجه من هذا البروز المبكر لقيس في هذا العهد، أن العلاقة مع خليفته كانت على ما يبدو قديمة، على نحو بدا فيه عليّ، عارفاً صاحبه عن كثب ومكتشفاً كفاءته وإخلاصه بعيداً عن السلطة. وقد جعله ذلك

---

(1) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 179. الطبري، ج 5، ص 198. ابن الأثير، ج 3، ص 260.
(2) الإمامة السياسية، ج 1، ص 62.
(3) أبو موسى الأشعري.
(4) ابراهيم بيضون، اتجاهات المعارضة في الكوفة، دراسة في التكوين الاجتماعي والسياسي، ص 9-10.
(5) الطبري، ج 5، ص 199.

موضع ثقة الخليفة الذي اختار مساعديه وفقاً لهذا النموذج، في دولة اهتزّت مصداقيتها في ظل النموذج الآخر. ومن هذا المنظور، كان يتم اختيار الرجل المناسب في منأىً عن الاعتبار الاجتماعي، على أن يحوز الشروط المطلوبة التي يأتي في صدارتها الولاء النقي والتجرّد الشديد والالتزام الصارم، فضلاً عن تطويق الخليفة له بالوصية ـ العهد، عشية خروجه إلى المهمة الموكولة له. وكان ذلك مما اشتهر به عليّ الذي كانت عهوده إلى أصحابه ـ لاسيما عهد الأشتر المعروف، بعد تعيينه والياً على مصر ـ تُمثّل مدرسةً في الفكر السياسي، كان الخليفة الراشدي الرابع من مؤسسيها وروّادها الكبار في الإسلام.

وهكذا يتّخذ قيس بن سعد طريقه إلى مصر[1]، ومعه عهد الخليفة: «سِرْ إلى مصر فقد ولّيتكها واخرج إلى رحلك واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند، فإن ذلك أرعب لعدوّك وأعزّ لوليك، وأحسنْ إلى المحسن واشتد على المريب، وارفق بالعامة والخاصة. . .»[2]، وبذلك يكون قيس أسبق أصحاب عليّ إلى القيام بدور كبير في الدولة، في وقت انصبّت الجهود على استعادة خطّها الجذري السابق، حيث كان لمصر موقع خطير في الصراع المرتقب، سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية. ومن هذا المنطلق، فإن أنظار معاوية لم تغب عن هذه الولاية الهامة، برغم اشتداد وطيس الحرب في صفين، فكان من هواجسه تفادي محاصرة الخليفة للشام والإطباق عليه من العراق ومصر في نفس الوقت[3]، مما جعله يركّز على الأخيرة للحؤول دون وحدة الولايتين، تلك المحاولة التي كلّفت علياً اثنين من كبار أعوانه (الأشتر ومحمد بن أبي بكر)، تآمر عليهما معاوية بالقتل، كما تآمر على سلفهما (قيس بن سعد) بالعزل، مؤدّياً ذلك إلى إرباك الجبهة العراقية التي تلقّت ضربة قاسية بخروج مصر من يدها وسيطرة معاوية عليها. ولعل أهميتها من هذا المنطلق تبرز مرة أخرى إبّان الصراع على السلطة فيما بعد بين المروانيين والزبيريين الذين شكّل

(1) صفر من سنة ست وثلاثين للهجرة. ابن الأثير، ج 3، ص 248.
(2) الطبري، ج 5، ص 227. ابن الأثير، ج 3، ص 268.
(3) يروي ابن الكلبي عن قيس وهو في مصر بأنه «كان أثقل خلق الله على معاوية بن أبي سفيان لقربه من الشام مخافة أن يقبل إليه عليّ من أهل العراق ويقبل إليه قيس في أهل مصر فيقع بينهما». الطبري، ج 5، ص 228.

افتقـادهم لمصر ضربة مماثلة، بعد أن أعـطاها مـروان بن الحكم الأولـويـة التي أعـطاها لهـا معاويـة قبل ذلـك، حاسمـة الموقف إلى حـد كبير لمصلحـة الدولـة الأموية «الجديدة».

توجه قيس «في سبعـة نفر من أصحـابه»[1] إلى مهمتـه الصعبة التي استهلّهـا بتلاوة كتاب تعيينه ودعوة «المصريين» إلى البيعة[2]، معقّباً على ذلك بخطبة تظهر حزمه وحكمته في آن، فضلاً عن المرونة التي تجلّت في رحابة مـوقفه وتـرك حيّز كبير للحوار، من غير أن يكون هذا الطرح مألوفـاً في مثل تلك الظـروف. فقد خاطب المصريين، فيما يرويه أبو مخنف، بقوله: «إنّا قد بـايعنا خـير من نعلم.. فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عـز وجل وسنّـة رسولـه صلى الله عليـه وسلم، فـإن نحن لم نعمل بـذلك فـلا بيعـة لنـا عليكم»[3]. وقـد وقعت هـذه الكلمات موقع الرضا في ولاية ما تزال تعجّ بـأنصار الخليفـة السابق وقيـاداته من أمثال عبد الله بن سعد بن أبي سرح، واليه المقرّب، ومسلمة بن مخلّد الأنصاري الذي حاول القيام بحركة مناوئة لقيس، تحت شعار الطلب بدم عثمان[4]. ولكن قيساً لم يعبأ لهذه الحركة، لاسيما وأن مسلمة «الأنصاري» تهيّب المضيّ في تصديه لوالٍ قوي، يجيـد صنعة القتـال، بمثل مـا يحسن صياغـة الموقف السيـاسي، مما سهّل عليه احتواء هذه الحـركة، استنـاداً إلى رواية ابن الكلبي[5]. وقـد أشـارت الرواية نفسها إلى أن مصر استجابت بكاملها لقيس ما عدا قرية واحدة، وردت «خَرْ بتا» عند الطبري[6] و«خرْ نبا» عند ابن الأثير[7]. ولعـلّ موقف القـرية التي

---

(1) الطبري، ج 5، ص 227.
(2) المكان نفسـه.
(3) المصدر نفسه، ج 5، ص 228.
(4) المكان نفسه.
(5) المكان نفسه.
(6) المكـان نفسـه. وردت كـذلك عنـد ابن عبد الحكم ولكن بكسـر الـراء بدلاً من تسكينهـا وقـد وصف أهلهـا بأنهم من مُـدْلج. فتوح مصر وأخبارهـا، ص 142. عن طبعـة ليـدن 1920. وكذلك وردت عند ياقوت وصفي الدين الحلّـي. وقـد وصفت بأنها من كـور الحوف الغـربي حوالي الاسكندرية. معجم البلدان، ج 2، ص 355. مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع، ج 1، ص 754.
(7) ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 271.

وصف أهلها بأنهم «قد عظموا قتل عثمان»[1] وقادهم رجل من كنانة[2]، يحمل أكثر من مؤشر في سياق الصراع على السلطة الذي كان لا يزال محصوراً بحدودٍ ما في إطاره السياسي. فثمة ما يستوقفنا هنا، هو تلك الحوارية اللاّفتة التي تمتع بها قيس وذلك الخطاب الهادىء الذي توجّه به إلى «المتمردين»، وهو من موقع القوة، بعد «استقامة» أمور الولاية، قائلاً لهم: «إني لا أُكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم»[3].

بيد أن هذه الحوارية التي كان لها تأثير كبير في السيطرة على مصر، اتُّخذت سبيلاً لمحاربته من جانب معاوية وشنّ حملة ذكية عليه، بعد أن فشل في احتوائه واستدراجه إلى صفوفه، حيث نجح في إثارة الشكوك لدى عليّ حول سياسة واليه على مصر واتخاذ قرار بعزله، بعد شهور قليلة من تعيينه[4]. ذلك أن معاوية، توجّساً من خطر قيس و«ثقله»[5]، حسب الرواية التاريخية، بادر إلى التفاوض معه ومحاولة استمالته إلى جانبه، بما يترتب على ذلك من سيطرةٍ على مصر وتغييرٍ في موازين الصراع العسكري الذي لم يكن حينذاك لمصلحة معاوية. فكتب إليه، حسب رواية ابن الكلبي، منطلقاً من الشعار الذي خاض به معركته في الشام، ومن التمسك بشرعية العهد السابق: «فإن كنتم نقمتم على عثمان بن عفان رضي الله عنه في أثرةٍ رأيتموها أو ضربة سوط ضربها أو شتيمة رجل أو في تسييره آخر أو في استعماله الفتيّ، فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون أن دمه لم يحل لكم، فقد ركبتم عظيما من الأمر وجئتم شيئاً إدّاً، فتب إلى الله عزّ وجلّ يا قيس، فإنك كنت في المجلبين على عثمان بن عفان رضي الله عنه، إن كانت التوبة تغني شيئاً»[6]. ولعل أبرز ما ينطوي عليه هذا النّص، هو مقايضة معاوية لقيس بدم عثمان من موقع التهمة التي وضع الأخير فيها، بوصفه أنه أكثر من ضالع في قتل الخليفة السابق، ذلك القتل الذي لم يسلم منه

(1) الطبري، ج 5، ص 228.
(2) يزيد بن الحارث بن مدلج. الطبري، ج 5، ص 228.
(3) المكان نفسه.
(4) المصدر نفسه، ج 5، ص 230.
(5) المصدر نفسه، ج 7، ص 228. ابن الأثير، ج 3، ص 269.
(6) المكان نفسه.

أحد حسب تعبيره، بمن فيهم الخليفة (علي) الذي زعم معاوية أنه «أغرى به الناس وحملهم على قتله حتى قتلوه»، منتهياً به ـ أي قيس ـ إلى الوعد بأن يكون له «سلطان العراقين» إذا ما تحوّل إلى ركب المطالبين بدم عثمان[1]. كما ينطوي هذا النصّ على أهمية الجانب الاعلامي في المعركة، وما يمكن أن تخضع له القيم والشعارات بعد توظيفها في خدمة المآرب الخاصة، كما يحدث عادة في الحروب الأهلية التي تنقلب فيها المقاييس وتتبدّل الاعتبارات، من غير أن يتورع أي طرف عن طرح نفسه ممثلاً للشرعية معبّراً عن مضمونها، مهما ابتعدت مواقعه عنها.

كانت هذه المداهمة، مما برع به معاوية في أساليبه لاستدراج الخصوم، مستخدماً ذلك بعد نحو ربع قرن مع أبناء الصحابة في الحجاز، الرافضين بيعة ابنه (يزيد) ولياً للعهد[2]. ولكن ذلك لم يلقَ أذناً صاغيةً لدى قيس الذي أثبت أنه لم يكن فقط جذرياً في المبدأ وصلباً في الموقف، وإنما أثبت أيضاً قدرته في المفاوضة ومجاراته معاوية في اكتساب الوقت: «فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان رضي الله عنه، وذلك أمر لم أقارفه ولم أطف به، وذكرت أن صاحبي هو أغرى الناس بعثمان ودسّهم إليه حتى قتلوه، وهذا لم أطّلع عليه، وذكرت أن عظم عشيرتي لم تسلم من دم عثمان فأول الناس كان فيه قياماً عشيرتي، وأما ما سألتني من متابعتك وعرضت عليّ من الجزاء فقد فهمته وهذا لي فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يُسرع إليه، وأنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلي شيء حتى ترى ونرى إن شاء الله والمستجار الله عز وجل»[3].

والواقع أن قيساً، كما تبدّى لنا من النّص، لم يسارع إلى فتح المعركة مع معاوية في أول الطريق، مستفيداً ما أمكن من الوقت، لتثبيت أوضاعه في مصر، من غير السكوت على ما أورده من تهمة له ولصاحبه ولعشيرته. ولكن هذا الموقف الذي لم يره معاوية إلاّ «مقارباً مباعداً»[4]، كان غير مقبول لديه، وسرعان ما لجأ إلى محاولة ثانية أكّدت له عقم الحوار مع قيس الذي تصدى مرة

(1) المكان نفسه.
(2) الإمامة والسياسة، ج 1، ص 172. ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، ج 4، ص 241-242.
(3) الطبري، ج 5، ص 228-229.
(4) المكان نفسه.

أخرى بجذريته القاطعة، للمساومة وما كانت تبطنه من تهديد: «فإن العجب من اغترارك بي وطمعك فيّ واستسقاطك رأيي، أتسومني الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة وأقولهم للحق وأهداهم سبيلاً وأقربهم من رسول الله ﷺ وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة أبعد الناس عن هذا الأمر وأقولهم للزّور وأبعدهم من الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ وسيلة... وأمّا قولك إني مالئ عليك مصر خيلاً ورجلاً، فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد»[1].

ولعلّ ما سبق من النصوص يزيد مساحة الضوء حول شخصية قيس التي استحقت ما وُصف به، من أنه صاحب حزم ورأي[2]. وكان ذلك قد أدركه معاوية، حين قرّر التخلص من خصمه القوي بأية وسيلة. فلجأ أولاً ومعه عمرو بن العاص - حسب رواية الزهري - إلى محاولة إخراجه من مصر بالقوة[3]، قبل أن يلجأ إلى الإيقاع به[4]، وإفساد ما له من ثقة لدى الخليفة، متوجهاً إلى «أهل الشام» - حسب الرواية السابقة - بقوله: لا تسبّوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه، فإنه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سرّاً. ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا، يجري عليهم اعطياتهم وأرزاقهم ويؤمّن سربهم ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه في شيء»[5]. ولم تلبث هذه الأخبار أن تسرّبت إلى «أهل العراق»، واستوقفت علياً وأركانه مسألة «خربتا» وأثارت الشك لديهم، لا سيما بعد رفض قيس محاربة أهلها، الذي وصفهم بأسود العرب[6]. ولا ينفك مؤثراً الحوار، برغم إصرار الخليفة في المقابل على موقفه، تاركاً له حسم الأمر بالعزل إذا كان لديه ما يريبه في هذه المسألة[7].

(1) الطبري، ج 5، ص 229.
(2) المصدر نفسه، ج 5، ص 228.
(3) المصدر نفسه، ج 5، ص 229.
(4) اليعقوبي، ج 2، ص 186.
(5) الطبري، ج 5، ص 229.
(6) المصدر نفسه، ج 5، ص 230.
(7) المكان نفسه.

وقد عزله الخليفة بالفعل، ولكن دون أن يتخلى عن ثقته به أو يخامره الشك بولائه المخلص، معبِّراً عن ذلك لمقربين منه: «إنّي والله ما أصدق بهذا على قيس»[1]، حسب رواية أبي مخنف الذي يرتاب في موقف عبد الله بن جعفر مستشار علي في هذه المسألة،إذ كان في نفسه على ما يبدو شيء ما على قيس[2]، فشجع الخليفة على عزله وتعيين أخيه لأمّه محمد بن أبي بكر مكانه[3]. ولا تنفي إحدى الروايات ما كان محبوكاً لدى بعض خواص الخليفة لإبعاد قيس عن منصبه الهام، في وقت كانت القلوب مشحونة والنفوس متربّصة، مع اقتراب ساعات الحرب التي اندلعت بعيد ذلك. ولم يكن أولئك الذين عاشوا مع الخليفة لحظات المعركة أو في ساحتها القريبة، يرون ما يراه قيس في ولايته التي انطوت على موقف متأرجح في الصراع بين الشام والعراق، دون أن يكون للعصبية فيها إسهام بارز في الفرز القبلي الذي حدّد مواقع الأطراف في ذلك الحين. فقد كان لتكوينها الجغرافي الذي انعكس على الوضع السكاني فيها، تأثير في ضعف التماسك بين قبائلها التي لم تشكّل وحدات كبيرة شأن الشام والعراق، وإنما كانت في الغالب امتداداً للتشكيلات القبلية الشاميّة، مما سهّل السيطرة الأموية عليها في وقت لاحق. ولعلّ هذه المسألة كانت ببال قيس بن سعد الذي استمدّ قوته من الشرعية الجديدة وبُعد نظره في السياسة، وليس من العصبيات التي كانت ضعيفة وغير قادرة على تكتيل نفسها في هذا الاتجاه أو ذاك. ومن هذا المنظور، نزع قيس إلى السلم أكثر من الحرب، بغية الدخول إلى قلوب الناس وعقولهم، في ولاية ما زالت تعيش على هامش الصراع السياسي، مسوّغاً ذلك في رسالة إلى الخليفة: «فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله إن قبلي رجالاً معتزلين قد سألوني أن أكفّ عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويروا رأيهم. فقد رأيتُ أن أكفّ عنهم وألّا أتعجّل حربهم وأن أتألفهم فيما بين ذلك. لعلّ الله عزّ وجل أن يقبل قلوبهم ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله»[4].

(1) المكان نفسه.
(2) الطبري، ج 5، ص 230.
(3) المصدر نفسه، ج 5، ص 231.
(4) المصدر نفسه، ج 5، ص 230.

والـواقع أن الخليفـة لم يكن متسرّعـاً في عـزل واليـه المقرّب، بـرغم إلحـاح مستشاريه عـلى ذلك، وإنمـا كان عـلى ما يبـدو غير مـوافق على نـظرية صـاحبه بـالكفّ عن تلك البؤرة التي يتجمّـع فيهـا أنصـار «الحـزب» الأمـوي المنـاوىء لعهده. ولكن قيساً تشبُّث بموقفه، مـدافعاً عن وجهـة نظره في آخـر رسالـة قبل عزله إلى الخليفة: «فقد عجبت لأمرك! أتأمـر بقتال قـوم كافّـين عنك مفـرغيك لقتال عدوّك! وإنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك، فأطعني يا أمير المؤمنين واكفف عنهم، فإن الرأي تركهم والسلام»[1]. بيـد أنه ـ أي قيس ـ يـواجه مـرة أخرى حملة في صفوفه، شبيهة بتلك التي حبكتها أجهزة معاوية، مشكّكة بولائه لعـليّ، وكان عبـد الله بن جعفر ـ استنـاداً إلى رواية الـزهري أيضـاً ـ لا ينفـك محـرِّضاً عـلى عزلـه، ناسبـاً إليه كـلاماً جـاء فيه: «إن سلطانـاً لا يتمّ إلاّ بقتـل مسلمـة بن مخلد، لسلطان سوء». وهكذا انتهى ذلـك الجـدل حـول قضيـة «خربتا»، بعزل قيس الذي كان يدرك في قـرارة نفسه أن ثمـة من حاول إفسـاد العلاقة بينه وبين الخليفة، مُسِرّاً بهذا الشعور إلى محمد بن أبي بكر بُعيد وصوله إلى مصر، إذ قال له فيما يرويه أبو مخنف: «ما بال أمير المؤمنين، ما غيّره، أدخل أحـدٌ بيني وبينه؟»[2]، فقـال له: «لا وهـذا السلطان سلطانـك»[3]، بينـما عقّب قيس بقوله: «والله لا أقيم ساعة واحدة»[4].

ولعلّ الخليفة بلغ في التريُّث حدّاً، أنه أرسل أحد أركانه الثلاثـة[5] للإطـلاع عن كثب على الوضع في مصر، ومن ثمّ إقناع قيس بوجهة نظر الخلافة. ويمكن من هذا المنظور تفسير إيفاد الأشتر[6] ـ إن صحّت الرواية التاريخيـة ـ قُبيل ذلـك للغاية نفسها، في وقت كان يصعب فيه الاستغناء عنه، فضلاً عن محمـد بن أبي بكر، والدولة حينذاك تجتـاز أدقّ مراحلهـا وأكثرهـا خطورة. وإذا كـان تعيين

---

(1) الطبري، ج 5، ص 230.
(2) المصدر نفسه، ج 5، ص 231.
(3) المكان نفسه.
(4) المكان نفسه.
(5) المكان نفسه.
(6) الأشتر، محمد بن أبي بكر، قيس بن سعد.

محمد بن أبي بكر خلفاً لقيس، ما ترجِّحه الروايات التاريخية، فإن تعيين الأشتر لا يخلو من اللَّبس، لاسيما وأنه رافق علياً طوال حروب صفين حتى انتهائها عملياً بالتحكيم، الذي كان له رأي فيه، فضلاً عن رغبة علي بأن يكون الأشتر ممثّله في الاجتماع التمهيدي للتحكيم في دومة الجندل[1]. ولعلّ ما يعنيه ذلك أن الأشتر لم يذهب خلفاً لقيس، وإنما الراجح أن محمد بن أبي بكر هو الذي تولّى هذا المنصب، وانتهى إلى الوقوع فيما تفاداه سلفه من محاربة أهل «خربتا»، حيث أدّى ذلك إلى تدخّل مباشر من الشام، أسفر عن سقوط مصر ومقتل الوالي بطريقة وحشية[2]. ويبدو أن الخليفة انتدب الأشتر حينذاك للقيام بمهمة في مصر، بعد اشتداد الضغط على واليه، للحؤول دون سقوطها بيد عمرو بن العاص، أو لاستعادتها بُعيد سقوطها، حيث قُتل بدوره في عملية مدبّرة قبل وصوله[3].

على أن ما يبقى خارج اللَّبس، هو الولاء الشديد الذي لم يتخلَّ عنه قيس للخليفة، حتى بعد عزله وانصرافه معتكفاً إلى المدينة، غير عابىء بـ «شماتة» خصمه «العثماني» حسان بن ثابت الأنصاري[4]، أو أن يكون خارج السلطة وموضع الشك من صاحبه. فهو لا يلبث أن يضيق به المقام في المدينة التي كانت تعجّ بالخصوم، وفي مقدمتهم مروان بن الحكم، ويبادر إلى الالتحاق بعليّ مقاتلاً تحت رايته في صفين، ومزيلاً ما بقي من حفيظة في نفسه، حين أدرك الخليفة أن صاحبه «كان يقاسي أموراً عظاماً من المكايدة، وأن من كان يهزه على عزل قيس بن سعد لم ينصح له، فأطاع علي قيس بن سعد في الأمر كله» حسب رواية الزهري[6].

---

(1) الطبري، ج 5، ص 231.
(2) المصدر نفسه، ج 6، ص 38.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 357.
(4) تقول الرواية التاريخية إن الأشتر عندما بلغ «القلزم شرب شربة عسل كان فيها حتفه». الطبري، ج 5، ص 230.
(5) ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 272.
(6) الطبري، ج 5، ص 231.

وهكـذا يثبت قيس جذريتـه الصافيـة التي لم تهزّهـا العواصف أو تفعـل بهـا المكائد والمغريات، منتقـلاً إلى موقـع أكثر خـطورة كان بـانتظاره في صفـين التي التهبت سـاحتها بحـرب طاحنـة، دفعت بالـدولة إلى الانقسـام وبالمسلمـين إلى التمـزّق. وفي تلك المواقف تتجـلّى صفات الـرجال الأقـوياء بـإيمـانهم العميق، والتزامهم الذي لا تؤثر فيها زعازع الأيام وتبدّلات الزمن. عـلى أن قوة قيس لم تكن في صفاته فقط، وإنما كـانت أيضاً في قـوته السيـاسية، كـزعيم لقوم نـزلوا بثقلهم في صفـين، مترادفـاً اسمه مـع الأنصار في هـذه الجبهة التي كـان أحـد قـادتها البـارزين، حيث تشير إحـدى الروايـات إلى ذلك في معـرض الرّد عـلى النعمان بن بشير قائلاً له بحزم: «فلو اجتمعت العرب على بيعتـه ـ أي معاويـة ـ لقاتلتهم الأنصار» [1].

وإذا تـوقفنا عنـد تشكيل القيـادة في الجبهة العـراقية، سنجـد قيساً ـ حسب روايـة أبي مخنف ـ أحد تسعـة[2] من القادة كـانوا يشنّـون غـارات متـواليـة عـلى معسكر معاوية، وفي موقعة ثانية، تتشكل القيـادة ـ حسب أبي مخنف أيضاً ـ من الأشتر على خيل الكوفة وعمّار بن ياسر على رجالتها وسهـل بن حنيف الأنصاري عـلى خيل البصرة وقيس بن سعـد وهـاشم بن عتبـة بن أبي وقّـاص ومسعـر بن فدكي التميمي على قـرّائها[3]، أي إن قيسـاً كان يقـاتل خـارج التشكيلة القبلية التي سادت في صفين، ويتّخذ موقعه حيث تدعو الحاجـة وترتئي القيـادة العليا. وفي موقعة ثالثة ـ حسب مروية ابن الأثـيرـ يتولى عـليّ القلب وعلى الميمنـة عبد الله بن بُديل الخزاعي وعلى الميسرة عبـد الله بن عباس، بينـما يقاتـل القرّاء مـع ثلاثة هم: عمّار بن ياسر وقيس بن سعد وعبد الله بن بُديل[4]. فهو حاضر دائـماً في قلب المعركة وخائض غمارها في هذا الموقع أو ذاك، وهو قائد مبرّز سواء قاتل بقومه، أو قاتل بغيرهم من القبائل المشاركة في هذه الحرب.

---

(1) الإمامة والسياسة، ج 1، ص 103.

(2) الأشتر وحجر بن عدي وشبث بن ربعي وخالد بن المعمر وزيـاد بن النضر وزياد بن خصفـه، وسعيد بن قيـس ومعقل بن قيس وقيس بن سعد. الطبري، ج 5، ص 243.

(3) المكان نفسه، ج 6، ص 6.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 297.

وإذا كان انتماء قيس لجيل المخضرمين أكثر من انتمائه لجيل الروّاد في الإسلام الأول، فإن جذريته لم تقل عن جذرية هؤلاء، بل كان أكثر حدّة وصفاء من كثيرين منهم. بالإضافة إلى ذلك فإن ما تميز به من إصرار على مواقفه وتمسّك بقناعاته، أكسب دوره في صفين دينامية وضعته في تيّار الحرب، الأكثر تعبيراً عن الجذرية، وفي مواجهة تيّار السلم أو الاستسلام للواقع، بما يعنيه ذلك من خيانة للمبدأ وتهاون في العقيدة واندحار للقضية. وقد ظلّ قيس إلى جانب الأشتر النخعي، مقاتلاً صارماً في صفين، ومدافعاً صلباً عن الشرعية المقترنة لديه بالإسلام، دون أن يعني ذلك الانتقاص من دور القادة الآخرين أو بعضهم، الذين قاتلوا أو استشهدوا في سبيل هذه القضية، ولكن قيساً وصاحبه كانت لهما تلك الدينامية التي جعلت من حضورهما أمراً غير عادي في أحداث تلك المرحلة ـ المنعطف في تاريخ الإسلام.

ومن هذا المنظور، كان قيس، شأن الأشتر، مقاوماً الدعوة إلى التحكيم ومنكراً لها، حيث وصفتها إحدى الروايات أنهما «كانا أشد الناس على عليّ فيها قولاً»[1]. فقد ارتاب كلاهما بهذه الدعوة، في وقت ظهرا «على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً»[2]، حسب قول اليعقوبي. ومن ناحية أخرى، فإن الأشتر الذي ترافق بروزه السياسي، مع الريادة لحركة المعارضة التي واجهت الخليفة عثمان، بدءاً من الكوفة[3] وانتهاءً بالمدينة[4]، وكان المجلّي في هجماته المظفرة على مواقع «أهل الشام»، لاسيما التي سبقت الدعوة إلى التحكيم[5]، كما أن قيساً الذي وجد فيه معاوية خصماً قوياً لم تنجح معه السُّبل لتحويله عن موقعه، سواء تلك التي بذلها إبّان ولايته على مصر أو تلك التي بذلها في غمرة المعركة، عبر قريب قيس وحليف معاوية الأنصاري، النعمان بن بشير، كما سبقت الإشارة[6]. فإن

(1) الإمامة والسياسة، ج 1، ص 119.
(2) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 188.
(3) الطبري، ج 5، ص 95. مروج الذهب، ج 2، ص 337.
(4) الطبري، ج 5، ص 104.
(5) ابن الأثير، ج 3، ص 302، وما بعدها.
(6) الإمامة والسياسة، ج 1، ص 102-103.

كليهما ـ الأشتر وقيس ـ بعد أن بلغ هذا الشوط في مقاومة الخطّ الذي يقوده معاوية، لم يرفض التحكيم من منطلق مبدئي فقط، بل من منطلق واقعي أيضاً، حيث الخيار الوحيد لكليهما، كان استمرار القتال، حتى جلاء الأمور بالنصر أو بالهزيمة.

وقد جرى التحكيم عبر مرحلتين: الأولى تمهيدية في دومة الجندل والثانية والأخيرة في أذرح[1]، وذلك في ظل أجواء كانت المساومة طاغية عليها، مما تعارض في الجوهر مع الجذريين من أصحاب عليّ الذين وقعوا رغماً عنهم في شرك المساومين في جبهتهم، وما جرّه عليهم ذلك من تراجع إثر آخر. ولكن الحقيقة المفجعة التي واجهت هؤلاء، هي ضعف التماسك في صفوفهم وبداية الانهيار في الجبهة العراقية، التي سرعان ما أماط التحكيم عنها الغطاء الرقيق. وتصاعدت المأساة، بسقوط الرموز من أصحاب عليّ، مثل عمّار بن ياسر وهاشم بن عتبة والأشتر النخعي، لا سيما الأخير الذي ترك غيابه فراغاً لم يكن بالإمكان تعويضه، بحيث نستطيع القول إنه ترادف أو كاد مع نهاية الحرب وإعلان الهدنة المقنّعة.

ولكن المأساة الكبرى، كانت في تصدّع الجبهة وخروج فريق منها احتجاجاً على التحكيم، حيث اقترن الفعل بالإسم، الذي عرفوا به وهو الخوارج. ولعلّه من المثير أن الحركة التي تمّت مباشرة في إطار الاحتجاج على التحكيم، لم تكن في مضمونها نابعة من الخط الجذري المتمسّك بالحرب، كما زعمت في حيثيات خروجها الأول، بقدر ما كانت لها أسبابها الاجتماعية والاقتصادية، إذ كان تمرّدها عزوفاً، ولكن بأسلوب آخر، عن الحرب، التي كان من الصعب أن تتوقّف لولا التصدّع الذي أحدثته في هذه الجبهة. وفي مقدمة ما يعنيه هذا الأمر، أن واقعاً جديداً، كان على الخليفة وأصحابه مواجهته في ذلك الوقت، توقفت في ظله الحرب الأساسية مع معاوية، واندلعت حروب جانبية ضد هؤلاء الخوارج، الذين تعمّقت الجراح بينهم وبين عليّ، على نحوٍ لم يعد ممكناً تضميدها أو رأب الصدع الذي أحدثته في الجبهة العراقية المتراجعة. وقد بذل

(1) الطبري، ج 6، ص 32.

الخليفة جهوده القصوى لمنع هـذا الواقـع المستجد[1]، ولكن الخـوارج كانـوا قد اتخـذوا قرارهم، ليس بـالافتراق عنـه فقط، بـل في تشكيـل حـركـة مستقلة في المفهـوم والرؤيـة والممارسـة، مما أدّى إلى وضـع الطرفـين أمام خيـار الحرب التي حملت الكارثة للجبهـة العراقيـة. ومن هذا المنـظور، لم تعد هـذه الحركـة معنية بجـوهر المسـألة الأسـاسية، بعـد افتقاد مصـداقيتهـا في أعقـاب فشـل التحكيم والعـودة إلى خيار القتـال، الـذي سبق أن تمسكت بـه واحتجّت عـلى إيقـافـه، كاشفةً فراغ شعاراتها التي تهاوت أمام إحراجها بالدعوة إلى قتال العدو المشترك، وإزاء رفضهـا تسليم قتلة الصحـابي عبـد الله بن خبّـاب وإمـرأتـه وغـيرهمـا من أصحـاب عليّ. فقـد كان ذلـك نذيـراً بانفجـار الجبهة العـراقية من الـداخل، وشحنها بالتوتّر الذي عبّر عنه الخوارج في معـرض الردّ عـلى عليّ: «كلّنـا قتلهم وكلّنا مستحلّ لدمائكم ودمائهم»[2]، حسب الرواية التاريخية.

وهكـذا خـرج عـليّ لقتـال الخـوارج من الأنبـار[3]، متخـذاً مـوقعـه في قلب الجيش، بينـما انعقدت الميمنـة لحجر بن عـديّ والميسرة لشبث بن ربعي، وقيادة الخيل لأبي أيوب الأنصاري والرجالة لأبي قتادة الأنصاري، وأهل المدينـة ـ «وهم ثمانمائة رجل من الصحابة» ـ لقيس بن سعد[4]، وكان الأخير سبّاقاً في المسير إلى معسكرهم في النهروان، متّخذاً طريق المدائن التي حلّ فيهـا وقتاً بـانتظار أوامـر الخليفة، قبل أن يستأنف السير إليهم ومعه عاملهـا سعد بن مسعـود الثقفي[5]، وذلك حسب رواية أبي مخنف، في حين يجعل الدينوري وصوله إلى النهـروان مع أبي أيوب الأنصاري[6].

ولكن قيساً في كلتا الروايتين يتقـدّم على صـاحبه مبـادراً إلى محاورة الخـوارج

---

(1) راجـع خطبـة عليّ يـوم النهر، وكـذلك رسـالتـه إليهم عـبر أبي أيـوب الأنصـاري، الإمـامـة والسـياسة، ج 1، ص 138-142. ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 343-344.

(2) ابن الأثير، ج 3، ص 343.

(3) الطبري، ج 6، ص 47.

(4) الإمامة والسياسة، ج 1، ص 137. الطبري، ج 6، ص 48.

(5) الطبري، ج 6، ص 47.

(6) الأخبار الطوال، ص227 .

بأسلوب يتجلّى فيه الاتزان بمثل ما تتجلّى المسؤولية، كما نُسب إليه في رواية أبي مخنف: «عباد الله اخرجوا إلينا طلبتنا منكم وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه وعودوا إلى قتال عدوّنا وعدوّكم، فإنكم ركبتم عظيماً من الأمر. . . نشدتكم بالله في أنفسكم أن تهلكوها فإني لأرى الفتنة قد غلبت عليكم»[1]. بيد أن هذا النداء لم يلقَ آذاناً صاغية لدى الخوارج، وفشلت محاولة ردّهم عن موقفهم، شأن المحاولات السابقة التي جرت منذ اعتصامهم في «حروراء» حتى انحيازهم إلى النهروان، حيث شهدت الأخيرة معركة طاحنة بين حلفاء الأمس القريب، انتهت بانتصار الخليفة ولكن دون وضع النهاية الحاسمة للخوارج، الذين استعادوا تنظيم أنفسهم بُعيد وقت قصير، مشهرين راية العصيان والثورة ضد معاوية وخلفائه في الدولة الأموية. ولعلّ قيساً قد أماط اللثام كاملاً عن موقف الخوارج، كدعاة للحرب ورافضين للسلام مع العدو المشترك، حيث الشعار الذي طرحوه في أعقاب الدعوة إلى التحكيم، فَقَدَ مضمونه الحقيقي أمام تجديد الدعوة الصريحة إلى القتال، تلك التي خاطبهم بها في ندائه السابق. ولم يكن غريباً أن يكون قيس، أكثر قادة عليّ حضوراً في النهروان التي غاب عنها الأشتر، مبرِّزاً فيها مقاتلاً متمرِّساً وقائداً مجلّياً[2]، حيث المعركة واحدة، سواء في صفين أو في النهروان، تستهدف الشرعية، بمثل ما تستهدف قناعاته وقضيته.

وبعد النهروان، رافق قيس الخليفة إلى الكوفة، التي كانت بأمسّ الحاجة إلى ترتيب وضعها الداخلي، بعدما صرفت الحرب كل الجهود عنها. وبدا قيس لصيقاً بصاحبه في عاصمة الخلافة، مقيماً على شرطته[3] بعض الوقت، قبل انتدابه والياً على أذربيجان[4]، التي سبق أن ولِّيها لعثمان الأشعث بن قيس[5]، وكانت لديه مشكلة حول خراجها مع عليّ بعد عزله[6]، مما ترك شيئاً من التذمّر

(1) الطبري، ج 6، ص 47.
(2) **الأخبار الطوال**، ص 210.
(3) ابن سعد، **الطبقات**، ج 6، ص 52-53.
(4) الطبري، ج 6، ص 91. **شرح النهج**، ج 6، ص 74.
(5) الطبري، ج 5، ص 148.
(6) **الإمامة والسياسة**، ج 1، ص 86.

في نفسه بعد «أخذه بمال أذربيجان»[1]، ما لبث أن انعكس على موقفه المتذبذب في صفين، وعلى حماسته للتحكيم الذي كان من كبار دعاته في جانب عليّ. بيد أن تعيين قيس على هذه الولاية لا يخلو من اللّبس، حيث أورده اليعقوبي سابقاً على صفين، مثبتاً ذلك باستدعاء الخليفة له عشيّة اندلاع الحرب[2]، بينما أورده الطبري[3] بعيد النهروان، مرجّحاً هذا الرأي أيضاً ابن أبي الحديد[4]، ولكن في سياقٍ يمكن الاستنتاج من خلاله، أن قيساً ربما عاد، حينذاك، إلى عمله بعد ركود الحرب، شأن الأشتر الذي ردّه الخليفة كذلك إلى عمله في الجزيرة (نصيبين)[5].

وفي ذلك الوقت يُرجّح ابتعاد قيس عن الكوفة إلى أذربيجان، حيث غابت أخباره عن واجهة الأحداث الكبيرة، ما بين تعيينه وبين اغتيال عليّ، أي خلال أقل من عامين، ربما افتقدته فيها الكوفة. ولعلّ الخليفة نازعته الرغبة في إعادته إلى مصر بُعيد مقتل واليها محمد بن أبي بكر، معبّراً عن ذلك فيما نسبه له ابن أبي الحديد، بقوله: «ما أرى لمصر إلاّ أحد الرجلين، صاحبنا الذي عزلنا بالأمس - يعني قيس بن سعد بن عبادة - أو مالك بن الحارث الأشتر»[6].

ولم يبقَ من قيادات الصف الأول في جبهة العراق، سوى قيس بن سعد، بعد أن لحق الأشتر بسلفه محمد بن أبي بكر. ولم يكن غياب الأشتر وقبله عمار بن ياسر وغيرهما من القيادات البارزة، ممّا يسهل تجاوزه في تلك المرحلة الدقيقة من الصراع بين «الشام» و «العراق»، حيث الاغتيال السياسي اتّخذ حيّزه في خطط معاوية، الذي كان يدرك تأثير القيادات في المعركة، عسكرية كانت أم سياسية. ولذلك لم يتردّد معاوية، في دفع أثمان باهظة، مقابل احتواء شخصيات راهن على دورها في مشروعه السياسي (محاولته الفاشلة مع قيس بن

(1) المكان نفسه.
(2) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 202-203.
(3) الطبري، ج 6، ص 191.
(4) شرح النهج، ج 6، ص 74.
(5) المكان نفسه.
(6) المكان نفسه.

سعد كما سبقت الإشارة، ومقايضته لكل من رجالات عهده: عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة. . .). ولم يتردد من المنظور نفسه، في التخلّص من آخرين أعيته السبل في احتوائهم أو الركون إليهم. فقد كان له سجل حافل في الاغتيال السياسي، مستخدماً وسائله المبتكرة في هذا المجال، لاسيما التي أودت بالأشتر، الذي قُدّم له السم ممزوجاً بالعسل، معبّراً عن ذلك ـ أي معاوية ـ بالمقولة الشهيرة: «إن لله جنوداً من عسل»[1]. وكان أحد هؤلاء «الجنود»، وهو طبيبه الخاص (ابن آثال)، قد سقى الكأس نفسها لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي خشيه معاوية لميل الناس إليه حسب الرواية التاريخية[2]، وبعد سنوات ثلاث، تناول الحسن بن عليّ تلك الكأس من يد زوجته (جعدة بنت الأشعث)[3] التي اصطنعها معاوية وأزال بواسطتها العقبة الأخيرة في مشروعه الرامي إلى إسقاط الشورى إسماً، بعد سقوطها بالفعل، وذلك في السنة نفسها التي قاد فيها يزيد الحملة الكبرى إلى القسطنطينية، دون أن تكون خارج المشروع السالف الذكر أو بعيدة عنه.

ولعلّ غياب قيس لم يكن طويلاً عن الكوفة، التي عاد إليها على ما يبدو في أواخر أيام عليّ، حيث بات اليد اليمنى للخليفة، إذا ما توقفنا عند رواية الزهري، بأن علياً «جعل قيس بن سعد على مقدمته من أهل العراق إلى قَبل اذربيجان وعلى أرضها وشرطة الخميس التي ابتدعها العرب وكانوا أربعين ألفاً بايعوا علياً عليه السلام على الموت»[4]. ولعلّه لم يغادر الكوفة أصلاً، حيث الرواية نفسها تلمح إلى ذلك، بأنه ـ أي قيس ـ «لم يزل يداري ذلك البعث حتى قتل عليّ عليه السلام»[5]. وإذا كان اغتيال عليّ قد أحدث صدمة عنيفة في صفوف جماعته وأربك حركة خليفته (الحسن)، مما انعكس على الجبهة العراقية التي لم يعد بالإمكان توحيدها واستنفارها على نحو ما كانت عليه عشية

---

(1) الطبري، ج 5، ص 230.
(2) في العام السادس والأربعين للهجرة. المصدر نفسه، ج 6، ص 128.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 460.
(4) الطبري، ج 6، ص 91.
(5) المكان نفسه.

التحكيم، فإن هذا الأمر كان مأساوياً بالنسبة لقيس والمشروع الذي ارتبط مصيرياً به تحت راية الخليفة السابق. بيد أنه لم يفقد الأمل في متابعة النضال من أجله تحت راية الحسن، فكان أول المبايعين له فيما يرويه الطبري[1]، ولكنها بيعة اقترنت بالحرب أو بقتال المحلّين كما وصفهم في «عهده» للخليفة[2].

على أن حسابات قيس، ليست بالضرورة حسابات الحسن، برغم وحدة الموقف وتشابه المنطلقات، فالظروف لم تعد هي نفسها في عهده، والضغط الأموي على الجبهة العراقية، لم تكن له خطورته في السابق كما في هذا العهد، بعد أن بلغت الهجمات الأموية حدّاً كبيراً من الجرأة، متوّجةً بهجوم معاوية على مسكن[3]، غير البعيدة عن الكوفة. ولعلّ ما يعنيه ذلك أن الأخيرة باتت مهددةً بصورة مباشرة، ممّا اقتضى أن يتخذ الحسن معسكره في المدائن، دون أن يكون ذلك مرتبطاً بهذه التطورات فقط، ولكن بما تتمتع به الأخيرة من موقع عسكري هام، جعلها منطلقاً للعمليات الحربية في صفين[4]، ومن ثمّ انطلقت منها الامدادات أثناءمعركة النهروان[5]. وفي ضوء هذا الواقع، فإن الجبهة العراقية أصبحت على وشك الانهيار، وبات الحصار الأموي أمراً واقعاً، تشتدّ وطأته يوماً بعد آخر، من غير أن نتجاهل هنا المتاعب الداخلية، سواء في تشكيل القوة العسكرية غير المنسجمة، أو في أزمة الخوارج التي لم تكن قد ركدت تماماً، أو في المشكلة الاقتصادية المزمنة، نتيجة للحرب الطويلة التي أغرت الكثيرين من «أهل العراق» في الالتحاق بمعسكر معاوية، حيث كان المال أحد أسلحته الفاعلة في المعركة.

ولكن الحسن، برغم هذه التحديات، لم يأتِ لإنهاء الحرب، كما يحاول

(1) المكان نفسه.
(2) المكان نفسه.
(3) المصدر نفسه، ج 6، ص 92.
(4) اليعقوبي، ج 2، ص 187.
(5) ابن الأثير، ج 3، ص 340. راجع في هذا السياق كتابنا: الجماعات المعارضة في الكوفة، ص 20.

بعض المؤرخين تفسير موقفه، انطلاقاً من خطبة البيعة[1]، وما عكسته من ارتياب «أهل العراق» في صدق عزمه على القتال. فقد يكون لدى الحسن جنوح نحو السلم، تحت تأثير المعطيات التي أشرنا إليها، ولكن الخيار لم يكن، حينذاك، سهلاً، حيث الواقع فرض عليه الخيار الآخر، استجابةً لتيّار الحرب الأقوى في جبهته، ممثلاً بقيس بن سعد وحجر بن عديّ وسليمان بن صُرد والمسيّب بن نجبة وآخرين من القيادات البارزة. وكان معاوية، إدراكاً منه بخطورة الموقع الذي يمثله قيس لدى الحسن وأهل العراق، كداعيةٍ للحرب ورافضٍ للصلح الذي كان يشدّد على إنجازه، قد لجأ إلى التركيز على خصمه الأنصاري ومحاولة احتوائه، بما يعنيه ذلك من حسم للمشكلة التي كان الأخير أحد العوائق الأساسية فيها. فقد رفض قيس المبلغ الكبير الذي أرسله إليه معاوية، حسب مروية اليعقوبي[2]، في وقت كان على رأس جيش من اثني عشر ألفاً، لصدّ قوات «الشاميين» عن الكوفة[3]. وقيل في رواية ثانية، أن القيادة كانت لعبيد الله بن عباس، الذي جعل قيساً «على مقدمته في الطلائع»[4] وأمره الحسن بأن «يعمل بأمر قيس بن سعد ورأيه»[5]. ولم تشر الرواية إلى دوافع اتخاذ عبيد الله بن عباس من دون قيس، قائداً لهذا الجيش الذي ضمّ الأخير كقائد فعلي له، ممّا جعله يتحرك برأسين، وتنعكس عليه صورة الوضع الداخلي المضطرب للجبهة العراقية. فلعلّ هذا الإجراء كانت له خلفية توازنية، بين الأنصار الذين تصدّروا تيار الحرب، وبين المهاجرين الذين بقي لهم حضور ما في الجبهة، كان معنوياً أكثر منه سياسياً أو عسكرياً، ولكن دون أن يعدم تأثيره في الصراع السياسي، الذي بات يدور في ظل شعارات متشابهة، على الرغم من تفاوت المواقع وابتعادها الضمني بين الطرفين. ولعلّه أيضاً ـ أي الحسن ـ كان يهدف إلى زجّ قريبه في المعركة ودفعه إلى الواجهة، مختبراً فيه الولاء الذي تبين

---

(1) قال فيها مخاطباً أنصاره: «إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت»، الطبري، ج 6، ص 93.
(2) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 214.
(3) المكان نفسه. ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 104.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 104.
(5) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 214.

أنه لم يكن صامداً، بعد أن مالت به النفس إلى معاوية الذي أجزل له العطاء[1]، منسحباً إلى معسكر الأخير «في ثمانية آلافٍ من أصحابه»[2].

ولكن المسألة ربما تعدّت ذلك أيضاً، إلى العلاقة بين الحسن، الذي بدأ يتّخذ منحىً واقعياً في سياسته، تحت تأثير المتغيرات السريعة، ويحرص ما أمكن على إنقاذ جماعته من القتل، وجبهته من السقوط النهائي، وبين قائده الصلب، الذي اتّخذ قراره في المقابل، ولكنه القرار الصعب الوحيد، دون أن يملك في تلك اللحظة معطيات الخيار الآخر الذي سار فيه الحسن. وقد أوجد ذلك نوعاً من التباين ليس بين الأخير وبينه فقط، إذ يرى الطبري أن الحسن «عرف أن قيس بن سعد لا يوافقه على رأيه، فنزعه وأمّر عُبيد الله بن عباس..»[3]، ولكن بينه وبين أخيه الحسين[4]، وآخرين من قادته الكبار الذين سبقت الإشارة إليهم[5].

وهكذا تتضارب المواقف ومعها المصالح أيضاً بين الحسن وقيس، دون أن يكون للعبارة الثانية مدلولها الفردي فقط، حيث كانت تعني كذلك الجماعة، سواء بالنسبة للأول الذي لم يعد أمامه سوى إنقاذها بعد أن أصبح معاوية و«أهل الشام» على تخوم الكوفة، أو بالنسبة للثاني الذي أدرك أخيراً أنه مواجه الهزيمة، بما تعنيه من هزيمة للأنصار في الوقت نفسه، بعد انخراطهم الكلّي في هذه الحرب. ويبقى الجانب الأهم في هذه المسألة، أن التراجع لم يكن سهلاً لشخصية جذرية مثل قيس، مشبعة بالإيمان ومفطورة على الالتزام، لاسيما التراجع المقرون بالهزيمة، فضلاً عن الذلّ ينتظره أمام معاوية، وقد وفّى بوعده الذي قطعه على نفسه: «آليتُ متى ظفرت بقيس بن سعد أن أقطع لسانه ويده»[6] حسب الرواية التاريخية. ومن هذا المنطلق يصبح قيس المشكلة الكبرى

(1) قيل إن معاوية أرسل له ألف ألف درهم. اليعقوبي، ج 2، ص 214.
(2) المكان نفسه.
(3) الطبري، ج 6، ص 91.
(4) المصدر نفسه، ج 6، ص 92.
(5) الدينوري، الأخبار الطوال، ص 220. الإمامة والسياسة، ج 1، ص 151.
(6) محب الدين الطبري، ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص 139.

أو عقدة الحلّ، بعد إصراره على القتال، غير عابىء بالحرب النفسية، التي استهدفته، عبر إشاعات روّجها أنصار معاوية، تزعم حيناً أنه قتل[1]، وحيناً آخر أنه «صالح معاوية وصار معه»[2]. فلم يؤثّر ذلك في موقفه الذي بقي صلباً، برغم ما تناهى إليه من أخبار عن اتفاق المدائن بين الحسن وبين ممثلي معاوية: عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة[3]، دون أن يجد نفسه ملزماً بتنفيذه أو معنياً باشتراط الحسن أن لا يؤخذ قيس «بتبعة قلّت أو كثُرت»[4]، معبِّراً عن رفضه له في مقولته الشهيرة: «أيها الناس اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام»[5]. ولكن قيساً واجهته، حينذاك، الفجيعة الكبرى التي واجهت قبله الحسن، في اتخاذ جنوده «الخيار» الأول، بعد أن بلغ الإحباط لديهم مبلغاً واشتدّت عليهم المعاناة واستبدّ بهم اليأس بعد سنوات خمس من القتال.

لقد انتهت الحرب الأكثر خطورة في تاريخ الإسلام، بتنازل الحسن لمعاوية عن السلطة، تلك التي كانت محور الصراع العنيف بين تيّارٍ جذري يقاتل من أجل الدولة ـ النموذج التي وضع الرسول أسسها في المدينة، وبين تيار توفيقي، يختلط فيه الإسلام بالعصبيات القبلية وربما الإقليمية، التي تكتّلت وراء معاوية[6]، وحقّقت له الفوز في معركة السلطة. ولعلّ هذا الصراع لم يبدأ من صفين أو من «يوم الدار»، بقدر ما امتدّت بدايته الفعلية إلى عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، الذي جاء اغتياله في سياق هذا الصراع، مستهدفاً نهج الخليفة أكثر من شخصيته. ولم يكن عليّ في حربه المستمرة ضد معاوية وحلفائه من القبائل الشامية، سوى مدافع عن هذه الدولة ـ النموذج التي كانت قد

---

(1) الطبري، ج 6، ص 92.
(2) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 214.
(3) الطبري، ج 6، ص 92.
(4) ذخائر العقبى، ص 139.
(5) الطبري، ج 6، ص 92.
(6) ذكر المقريزي في سياق الحديث عن خلع الحسن نفسه وبيعه معاوية، إن الناس «نسيت شأن النبوة والحواري ورجعوا إلى أمر العصبية والتغالب». الدر المضيئة في تاريخ الدولة الاسلامية، مخطوطة ورقة 1.

دخلت عملياً في مرحلة السقوط قبل نيف وعشر سنوات من عهده.

ومن هذا المنظور، فإن الدولة الراشدية التي عارض قيامها «الأنصار» في السقيفة، كان زعيمهم قيس بن سعد آخر المدافعين عنها في معسكره بالجزيرة. وإذا كان أبوه سعد بن عبادة قد رفض البيعة لأول الخلفاء، فقد اختلفت الروايات حول بيعة قيس لمعاوية، فقد أشار اليعقوبي إلى لقاء عاصف مع الأخير الذي «حبا على ركبتيه ثم أخذه بيده وقال: أقسمت عليك! ثم صفّق على كفه، ونادى الناس: بايع قيس! فقال كذبتم والله ما بايعت»[1]. أما الطبري - حسب رواية الزهري - فقد أورد أن معاوية أرسل إلى قيس بن سعد «يذكره الله ويقول على طاعة من تقاتل وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك، فأبى قيس أن يلين له»[2]. ولكنه عاد فدخل في طاعته، بعد أن «أرسل إليه بسجل قد ختم بأسفله»[3]، على غرار ما فعله مع الحسن، مشترطاً كذلك شرطاً مماثلاً لما جاء في كتاب صاحبه، انطوى على الأمان «له ولشيعة عليّ»[4]، ولكن دون أن «يسأل معاوية في سجله ذلك مالاً»[5]، حسب الرواية نفسها. وما لبث أن غاب قيس عن الأنظار وانزوى في المدينة منسياً يقطف ثمار موقفه وجماعته الأنصار، قهراً وحرماناً، مما رسّخ الأحقاد في المدينة ضد معاوية وخليفته الذي استهدفته ثورتها بعد سنوات قليلة من وفاة قيس[6]، مسهمة بنصيب ما في إسقاط هذا العهد (السفياني).

---

(1) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 217.

(2) الطبري، ج 6، ص 94.

(3) المكان نفسه.

(4) المكان نفسه.

(5) المكان نفسه. ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص 408.

(6) توفي قيس بالمدينة في أواخر خلافة معاوية. ابن سعد، الطبقات، ج 6، ص 52-53. وقد ذكر ابن الأثير أنه توفي سنة تسع وخمسين أو ستين للهجرة. الكامل، ج 3، ص 525.

خاتمة

إن ثمة إشكاليات تطرحها هذه الدراسة، انطلاقاً من الهجرة إلى يثرب (المدينة)، وما رافقها من نشوء الدولة الإسلامية الأولى، منطوية بدورها على عدة إشكاليات، قد لا يكون محورها فقط الصراع الخفي على السلطة، المتجسّد في حركة النفاق، بأبعادها الإقليمية والاجتماعية، فضلاً عن سقوط «الأنصار» كدور سياسي في «السقيفة» أمام تقدّم «المهاجرين» وسيطرتهم على الخلافة. ذلك أن الصراع العلني الذي كانت ساحته «سقيفة» لبني ساعدة من الخزرج، لم يظهر بصورة عفوية عشيّة وفاة الرسول، وإنما كانت له مقدماته المتزامنة، ربما مع نشوء هذه الدولة، لاسيما المتصلة بفتح مكة، الذي كان للأنصار موقف خاص منه يتعارض والطريقة السلمية التي تمّ فيها «الفتح». فقد أسهم ذلك في تعزيز جبهة المهاجرين، في الوقت الذي أخذت فيه جبهة الأنصار في الانكفاء، وزعامتها في التراجع. وتكرّس هذا الواقع أو بدأ يتكرّس منذ ذلك اليوم (الفتح)، وإن كانت معالمه الواضحة قد تجلّت بعد سنوات ثلاث في السقيفة، فضلاً عن «حوران» التي شهدت الفصل الأخير من سقوط الزعامة الأنصارية، المتكافئة مع زعامة المهاجرين، مع «اغتيال» سعد بن عبادة، بما انطوى عليه من خلفية سياسية، لم تكن هذه المؤشرات الثلاثة بعيدة عنها، أو منفصلة بمجملها عن سياق الصراع على السلطة الذي بدأ مبكّراً في الدولة الناشئة.

ومن هذا المنظور، كانت إشكالية السلطة طافية بين أحداث تلك الفترة

الهامة من تاريخ المدينة، دون أن يكون لها طابعها الإسلامي فقط، أو تكون معزولة عن مرحلة ما قبل الإسلام، فقد كان للمحنة الشديدة التي عاناها الأوس والخزرج في «يثرب» في أعقاب سلسلة «الأيام» الدامية، تأثيرها من دون شك في تكوين الظروف التي مهّدت لهجرة الرسول والمسلمين الأوائل، بعد أن أخفقا معاً أو منفردين في احتواء القبائل اليهودية وتحقيق السيطرة العربية الكاملة على المدينة. ولذلك كانت الهجرة وفقاً لهذا المنظور، وعبر دوافعها الذاتية والموضوعية، انقاذاً لهاتين القبيلتين (الأنصار) من الصراعات المزدوجة المزمنة، مما يفسّر تلك الإيجابية المفرطة في العلاقة مع المهاجرين والانخراط العميق في الجبهة الإسلامية (الجماعة) التي كان للأنصار دور بارز في تكوينها السياسي والاجتماعي. ولكن هؤلاء، برغم الدوافع المنعكسة عليها صورة الوضع الداخلي المضطرب، أثبتوا أنهم الرعيل النخبوي المعطاء، إلى جانب المهاجرين في الإسلام الأول، ولعلّهم كانوا أكثر بذلاً من هؤلاء على صعد مختلفة، لاسيما في الحملات الطليعية التي كانوا مادتها الغالبة ووقودها المتأجج في المواقع الكبرى، المسفرة عن ترسيخ جذور الإسلام في الحجاز، مثل موقعتي «بدر» و«أحد»، حيث سقط العديد منهم في الموقعة الأخيرة بشكل خاص، تاركاً ذلك جراحاً عميقة في نفس قريش، ظلت تستثير حقدها طويلاً على الأنصار، حتى بلغ الذروة في العهد السفياني المتأخر.

فلم يكن من السهولة طوي هذه الصفحة الدامية، وتجاوز المحنة التي افتقدت فيها قريش فرسانها الكبار في «بدر»، وما أحدثه ذلك من اختلال لم تستطع تقويمه فيما بعد في جبهتها العسكرية، فضلاً عن الضربة القاسية التي حلّت بتجارتها، نتيجة للحصار الاقتصادي غير المباشر على مكة، بما في ذلك تهديد الأمن التجاري لطريق الشام، الشريان الرئيسي للقوافل القرشية. وقد عبّر عن هذا القلق أحد رجالاتها (صفوان بن أمية)، متهماً الأنصار بقوله: «قد عوّروا علينا متجرنا»، مما كان له تأثير سلبي على موقع قريش بين القبائل، بعد إخفاقها في حماية التجارة التي شكّلت نقطة التقاطع المركزية بين الطرفين في الحجاز وشبه الجزيرة، فضلاً عن التخوم الشامية.

وكانت غزوة «الحديبية» قد فتحت ملفّ هذه المسألة القبلية على نطاق

واسع، باتت معه قريش أكثر عزلة في الحجاز، بعد فقدانها الامتياز «الديني»، المتداخل مع الموقع التجاري الذي واجه بدوره أزمة جعلت القبائل تعيد النظر فعلياً في مواقفها، منذ اتفاق الحديبية، وما أسفر عنه من تعديل جذري في موازين الصراع بين مكة والمدينة لمصلحة الأخيرة. وكان دخول الرسول وأصحابه «معتمرين» في العام التالي للاتفاق (السابع الهجري) إلى مكة، دخولاً سياسياً مهّد من دون شك للدخول الفعلي بعد عام فقط في ظلّ غزوة «الفتح» التي سبقت الإشارة إليها.

وإذا كان ذلك خاتمة الصراع بين المدينة ومكة من منظور الرسول والمسلمين بشكل عام، فإنه كان بالنسبة للأنصار بدايةً لصراع آخر تمحور حول السلطة التي أخذ هؤلاء يهجسون بها جدّياً منذ ذلك الوقت. على أن البداية ربما كانت سابقة على حملة الفتح التي جعلت سعد بن عبادة الخزرجي (حامل راية الرسول فيها)، يخالجه الخوف على مصير قومه (الأنصار) ويستبدّ به القلق على دورهم السياسي في الدولة، بعد انتزاع الراية منه بتأثير من قريش، إذ كانت المدينة لا تعدم مؤشرات قبل ذلك، تعكس هذا الصراع على السلطة بصورة غير مباشرة. ولعلّ حركة «النفاق»، برغم المناحي غير السياسية التي يعبّر عنها النصّ القرآني بالنسبة للأخيرة، إلاّ أنها في بعض جوانبها ليست منفصلة عن هذه المسألة التي نجد لها انعكاساً في ذلك التباين بين موقف المهاجرين المتشدِّد، وبين موقف الأنصار المتّسم بالمرونة أو شيء منها نحو زعيم «المنافقين» عبد الله بن أُبيّ بن سلول. فلم تكن مصادفة برغم غموض الجانب التنظيمي في هذه الحركة، أن يكون قائدها ممن يطمحون إلى «الملك» في يثرب، دون أن تخمد فيه هذه النزعة بعد حسم الموقف في المدينة. فقد كان عبد الله بن أُبي من بقايا الزعامات القديمة التي سقطت غالبيتها في «يوم بعاث» قبيل الهجرة، ولكنه لم يكن على الأرجح يملك نفوذها الذي انتقل إلى أبنائها، وكان له تأثير في التمهيد للهجرة. ولكن ابن أُبيّ استمدّ قوته من عنصر التناقض السياسي فضلاً عن الاجتماعي بين جمهور الإسلام الذي كانت له همومه المختلفة عن هموم حركة النفاق، بقدر ما كان للأخيرة اختلاف عنه في تكوينها الاجتماعي القائم على تكتّل الفئات الميسورة وتحالفها مع القبائل اليهودية، لاسيما بني القينقاع الأكثر غنىً والأوسع

تجارة في المدينة. ومن هنا كان عنصر القوة في هذه الحركة، عنصر ضعف في الوقت نفسه، حين بدت معاكسة لمجرى التاريخ ومعزولة عن التيار العام، المتمثل بالجماعة الاسلامية التي نجحت بفضل وحدتها وتماسكها، في ضرب الرموز المباشرة وغير المباشرة لحركة النفاق، انطلاقاً من المواجهة الظافرة مع اليهود، الذين شكّل اخراجهم من المدينة، النهاية الفعلية لهذه الحركة.

وإذا كان الصراع السياسي، قد رهصت به حركة النفاق بصورة ما، عبر التركيز على إثارة النزعة الاقليمية بين الأنصار، ومنهم جماعة عبد الله بن أبي، وبين المهاجرين، انطلاقاً من عدة مؤشرات توقّفت عندها هذه الدراسة، فإن مسألة السلطة لم تأخذ حيّزها حينذاك من اهتمام الأنصار، لاسيما وأن تعاطف الرسول الظاهر معهم قد أدّى إلى تأجيل التفكير الجدي بها على الأقل في تلك المرحلة، كما أدّى إلى احتواء قلقهم إزاء المهاجرين يوم الفتح، وذلك باتخاذ قرار استمرار المدينة حاضرة للدولة. فقد أعاق التكوين الاجتماعي غير المتماسك للأنصار، دون الخوض الفعلي في هذه المسألة، إذ كانوا يعانون ـ خلافاً للمهاجرين ـ الانقسام الذي تجلّت مقدماته في حركة النفاق، وأصبح أمراً واقعاً بعد انتقال الثقل السياسي في الجبهة الاسلامية إلى قريش، مما فرض نوعاً من التبعية لدى بعضهم منذ ذلك الوقت نحو المهاجرين، الذين أثبتوا جدارة عالية في القيادة السياسية، من خلال دورهم الريادي وجبهتهم الأكثر صلابة، لم يستطع مجاراتهم فيها الأنصار.

ويبقى السؤال الملحّ، إذا كان الأنصار في إثارتهم المبكرة لمشكلة السلطة في السقيفة، طامحين فعلاً إلى الخلافة، أم انهم تداعوا إلى ذلك في ظلّ هاجس الخوف من الاستئثار القرشي دونهم بهذا الأمر. وسواء كان هذا الدافع أو ذاك وراء محاولة الأنصار لبيعة سعد بن عبادة، فإن الإنقسام الذي امتدّت جذوره بينهم إلى ما قبل الإسلام، عاد إلى الظهور مجدّداً في السقيفة، متفاوتة مواقفهم بين عدّة اتجاهات، تدرّجت من التطرّف (سعد بن عبادة)، إلى الاعتدال أو بعضه (الحباب بن المنذر)، وكلاهما من الخزرج. . إلى الإنشقاق (بشير بن سعد وأُسيد بن حضير)، الأول من الخزرج والثاني من الأوس.

وهكذا فإن الأنصار الذين وصفهم أحد زعمائهم، «بأنهم كتيبة الإسلام»، لما قدّموه من عطاء كبير وتضحيات جسيمة تحت رايته، أخفقوا ليس فقط في الوصول إلى السلطة، ولكن أيضاً في تحقيق المشاركة مع المهاجرين، إذ إن التسوية التي طرحها الخليفة الأوّل، بما نُسب إليه «نحن الأمراء وأنتم الوزراء»، لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ. فكان عليهم التكيّف مع المرحلة الجديدة والانضواء تحت راية قريش، برغم احتجاج سعد ورفضه الاعتراف بالأمر الواقع. وإذا كان الأنصار قد حققوا بعض المشاركة في الدولة الراشدية، قليلها في عهد عمر وكثيرها في عهد عليّ، فإن ذلك لم يكن بمستوى ما كانوا يطمحون إليه. ولم تكن هذه الدولة، الدولة المثالية التي يتوقون إليها، ولكنهم وجدوا فيها بعض دورهم السياسي الذي تلاشى أو كاد بصورة نهائية في الدولة الأموية. فقد أدّى قيام الأخيرة إلى تكريس حرمانهم من السلطة، مترافقاً مع انهيار المعادلة الفريدة التي أسفر عنها فتح مكة، مضموناً وظاهراً، وهي سقوط مكة من دون قريش والأنصار من دون المدينة، ولكن مع تعديل أموي جديد، أدّى إلى سقوط عاصمة الإسلام أيضاً وابتعادها عن مركز القرار السياسي منذ ذلك الحين، بُعد المسافة التي نأت بالأنصار عن القرار.

مصادر ومراجع

- القرآن الكريم
- ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد هبة الله المدائني: **شرح نهج البلاغة**. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة 1965.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي: **الكامل في التاريخ**. دار صادر ـ بيروت 1979.
- ابن اسحاق، محمد بن اسحاق المطلبي: **كتاب السير والمغازي**. تحقيق سهيل زكار. دار الفكر ـ بيروت 1979.
- ابن الأعثم، أبو أحمد محمد الكوفي: **كتاب الفتوح**. دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر أباد 1969.
- ابن حوقل، ابو القاسم محمد النصيبي: **كتاب صورة الأرض**. بيروت، 1963.
- ابن خرداذبة، ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله: **المسالك والممالك**. مكتبة المثنى ـ بغداد (د. ت).
- ابن خياط، خليفة بن خياط بن محمد العصفري: **تاريخ خليفة بن خياط**. تحقيق سهيل زكار ـ دمشق 1968.
- ابن الزبير، عروة بن الزبير بن العوام: **مغازي عروة بن الزبير**. تحقيق محمد حميد الله ـ الرباط 1980.
- ابن سعد، ابو عبد الله محمد بن سعد البصري الزهري: **غزوات الرسول وسراياه**. تقديم أحمد عبد الغفور عطار. دار صادر ـ بيروت 1981.
- **كتاب الطبقات الكبرى**. دار صادر ـ بيروت (د. ت).

- ابن سيّد الناس: **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**.
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله القرسي: **فتوح مصر وأخبارها**. مكتبة المثنى - بغداد (د. ت).
- ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جراوة: **بغية الطلب في تاريخ حلب**. تحقيق سهيل زكار - دمشق 1988.
- ابن كثير - أبو الفداء الحافظ: **البداية والنهاية**. مكتبة المعارف - بيروت 1966.
الفصول في اختصار سيرة الرسول. دمشق - بيروت 1400 هـ.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري: **الإمامة والسياسة (يُنسب له)**. مكتبة المعارف - بيروت 1961.
- ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري: **لسان العرب**. دار صادر - بيروت (د. ت).
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك: **السير النبوية**. تحقيق: السقاء الابياري، شلبي - القاهرة 1955.
- البخاري: **صحيح البخاري**. عالم الكتب - بيروت.
- البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر البغدادي: **أنساب الأشراف**. تحقيق إحسان عباس - بيروت 1979.
أنساب الأشراف. تحقيق محمد حميد الله. دار المعارف بمصر 1959.
أنساب الأشراف. تحقيق محمد باقر المحمودي. مؤسسة الأعلمي - بغداد 1974.
- البيّاسي، جمال الدين ابو الحجاج: **الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام**. مخطوطة دار الكتب المصرية رقم 399 ت.
- الحافظ النجار: **الدرر الثمينة في تاريخ المدينة**.
- الحلبي، علي بن برهان الدين: **انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون الشهير بالسيرة الحلبية**. طبعة مصر 1969.
- الحلي صفي الدين: **مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع**. تحقيق علي محمد البجاوي. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1954.
- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داوود: **الأخبار الطوال**، تحقيق عبد المنعم عامر، دار المسيرة، بيروت (د.ت).
- الزهري، محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب: **المغازي النبوية**. تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1981.
- السمهوري، نور الدين علي بن أحمد المصري: **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**.

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1955.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله الخثعمي: **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية** لإبن هشام. تقديم طه عبد الرؤوف سعد. مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة (د. ت).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **تاريخ الخلفاء**. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1969.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**. مكتبة خياط، بيروت، (د. ت).
- الطبري، محي الدين احمد بن عبدالله: **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى**. دار الكتب العراقية 1387 هـ.
- الفلابي، محمد بن زكريا بن دينار البصري: **وقعة الجمل**، تحقيق الشيخ محمد آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد 1970.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**. دار الكتب العلمية، بيروت 1984.
- المقريزي: **الدرر المضيئة في الدول الاسلامية**، مخطوطة. المنقري، نصر بن مزاحم: **وقعة صفين**. تحقيق عبد السلام هارون، طبعة ايران، 1382 هـ.
- الواقدي، محمد بن عمر بن واقد: **كتاب المغازي**. تحقيق مارسون جونس، مؤسسة الأعلمي - بيروت، (د. ت).
- ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله الرومي: **معجم البلدان**. دار صادر، بيروت، 1979.
- اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب: **تاريخ اليعقوبي**. دار صادر، بيروت، 1960.
- بيضون، ابراهيم: **اتجاهات المعارضة في الكوفة**، دراسة في التكوين الاجتماعي والسياسي (٤١ - ٧١ هـ). معهد الانماء العربي، بيروت، 1986.
الإيلاف والسلطة في مكة قبل الاسلام. مجلة دراسات، الجامعة اللبنانية، عدد 18، 1985.
الحجاز والدولة الاسلامية، دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت 1983.
حملة مؤتة، مقاربة للمشروع السياسي الأول للدولة الاسلامية في بلاد الشام، أوراق الندوة الثانية للمؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان 1987.
- الحوفي، أحمد: **أدب السياسة في العصر الأموي**. مكتبة نهضة مصر، 1960.

- الشايب، أحمد: تاريخ الشعر السياسي، مكتبة النهضة المصرية، 1976.
- الشريف، أحمد ابراهيم: الدولة الاسلامية الأولى، دار القلم، القاهرة، 1965.
- علِيّ، جواد: المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1968.
- الكتاني، عبد الحيّ بن عبد الكبير الحسين،: نظام الحكومة النبوية المُسمى التراتيب الادارية، بيروت، (د. ت.)
- قطب، سيد: في ظلال القرآن، مكتبة الحياة، بيروت، 1965.
- وات، مونتغمري: محمد في المدينة. ترجمة شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا (د. ت).

— Donner, F: *Muhammadas political consolidation in Arabia.* Up + the of Mécca. Hartford Seminary XIX, No. 1979.
— Kister, M.J: *Studias in Jahiliyya and erly Islam.* (the Battele of the Harra) éd. Variorum - London 1980.
— Reckendorf:

دائرة المعارف الاسلامية، ج 3، ط ايران.

— Vezely, J: *Al-Ansār,* in ersten Juhrhendert des Islam. Archiv, orientalni, 1973.

فهارس

1 - الآيات القرآنية

- ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسولُ الله والله يعلم إنك لرسُولُه والله يشهد أن المنافقين لكاذبين﴾.

(سورة المنافقون، الآية 1، ص 70)

- ﴿اتخذوا أيمانهم جُنة فصَدّوا عن سبيل الله إنهم سآء ما كانوا يعملون﴾

(سورة المنافقون، الآية 2، ص 70)

- ﴿ذلك بإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾

(سورة المنافقون، الآية 3، ص 70)

- ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾

(سورة المنافقون، الآية 6، ص 70)

- ﴿يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلَّ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾

(سورة المنافقون، الآية 8، ص 86، 88)

- ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلهكم اموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾

(سورة المنافقون، الآية 9، ص 70)

- ﴿وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموتُ فيقول رَبِ لولا أخّرتني

الى أجل قريب فأصدق وأكون من الصالحين﴾

(سورة المنافقون، الآية 10، ص70)

- ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجدَ لهم نصيراً﴾

(سورة النساء، الآية 145، ص74)

- ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبلُ وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾

(سورة التوبة، الآية 48، ص92)

- ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾

(سورة التوبة، الآية67، ص74)

- ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذابٌ مقيم﴾

(سورة التوبة، الآية68 ، ص70)

- ﴿ فرح المُخلَّفُون بمقعدهم خلف رسول الله وكرهوا ان يُجٰهِدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحرّ قل نارُ جهنم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون﴾

(سورة التوبة، الآية 81، ص91)

2 ـ الأعـلام

3 ـ القبائل والشعوب

4 - الأماكن

5 ـ مصطلحات الرحلة

كتب صدرت للمؤلف:

- تاريخ العرب السياسي، من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد، بالاشتراك مع سهيل زكار، 1974
- التوّابون. طبعتان: 1975، 1978.
- الدولة العربية في إسبانية، من الفتح حتى سقوط الخلافة. ثلاث طبعات: 1978، 1980، 1986.
- ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، 1979.
- الدولة الأموية والمعارضة، مدخل الى كتاب «السيطرة العربية» للمستشرق الهولندي فان فلوتن مع ترجمة له. طبعتان: 1980، 1985.
- الحجاز والدولة الاسلامية، دراسة في اشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري. 1983.
- من دولة عمر الى دولة عبد الملك طبعتان: 1985، 1989.
- من الحاضرة الى الدولة في الاسلام الأول، 1986.
- اتجاهات المعارضة في الكوفة، دراسة في التكوين الاجتماعي والسياسي. 1986.
- الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس، دراسة في أدب السلطة. 1987.
- مؤتمر الجابية، دراسة في نشوء خلافة بني مروان 1988.
- الأنصار والرسول، اشكاليات الهجرة والمعارضة 1989.

مساهمات في كتب:

- صفحات من تاريخ جبل عامل (دراسات تاريخية) 1979.
- أمين الريحاني (نصوص دراسية وابداعية) 1988.
- حجارة الضوء (نصوص دراسية وابداعية) 1988.
- الأمير شكيب أرسلان وتحديات عصر النهضة (دراسات فكرية وتاريخية ولغوية) 1989.
- أوراق الندوة الثانية للمؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام - الجامعة الاردنية.
- أوراق الندوة الثالثة للمؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام - الجامعة الاردنية.
- اوراق ندوة «مالية الدولة في صدر الاسلام» - جامعة اليرموك.

فهرس المحتويات

الباب الأول

الأنصار والهجرة ـ مرحلة التكوين

الباب الثاني

الأنصار والانقسام القبلي

(حركة النفاق)

الباب الثالث
زعامات أنصارية جديدة بعد الرسول
نموذج : قيس بن سعد

فهارس